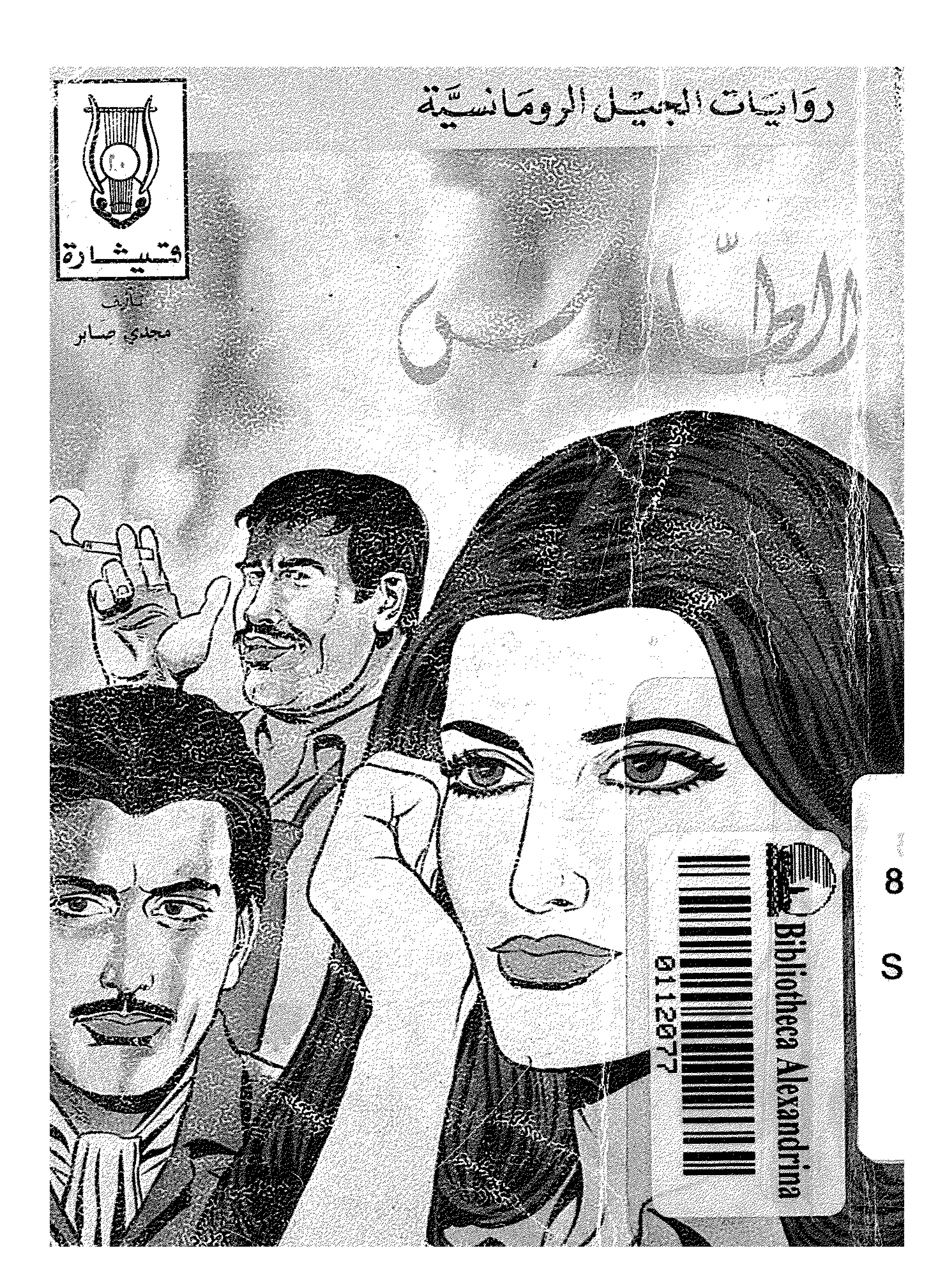
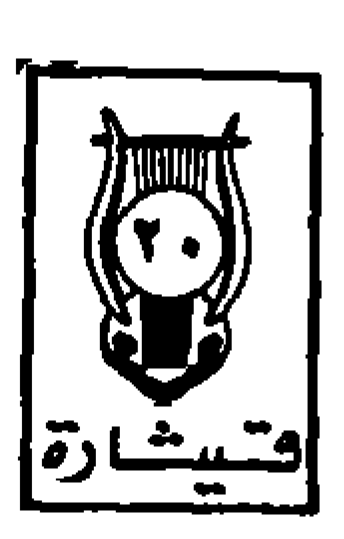
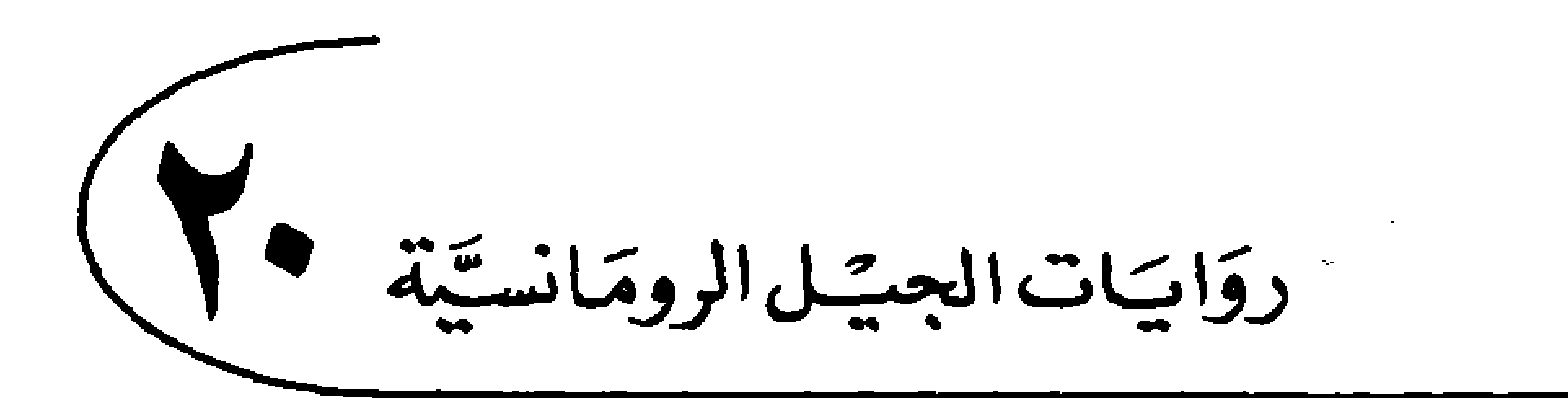


روايات الجيل الرومانسية
قيثارة
تأليف
مجدي صابر

الطاووس





الطّاووس

تأليف
مجدي صابر

دارُ الجيل
بيروت

الطبعَة الأولى

١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م

إعجاب

منذ اللحظة الأولى التي وقع فيها بصر «علاء» عليها تركزت عيناه فوقها وهو يتأملها في شغف وإعجاب بالغ . . على حين انهمك الجالسون أمامه وخلفه داخل الحافلة الكبيرة في التصفيق والغناء الشابي . . والحافلة منطلقة بهم بكل سرعتها الى مدينة «الفيوم» الجميلة .

كانت رقيقة نحيفة يتماوج شعرها ذات اللون العسلي حول رأسها ووجهها الناعم الدقيق القسمات ، وقد انفرجت شفتاها عن ابتسامة رائعة أضافت جاذبية أشد على الوجه الشاحب . .

وبكفيها راحت تصفق مشاركة في الإيقاع الغنائي . . وقد انهمك أحد الطلبة في الغناء بطريقة مرحة . . على حين راح بقية زملائه وزميلاته يردون عليه في « كورس» جماعي .

ومال «نادر» على «علاء» يسأله في دهشة: إنك شارد منذ

غادرنا الجامعة في طريقنا الى «الفيوم» . . فما الذي سلب انتباهك الى هذه الدرجة؟

وعندما لمح الوجه الرقيق الذي تركزت فوقه عينا صديقه، قال ضاحكا: آه . . الآن خمنت السبب . . هل هو حب جديد؟

غمغم «علاء» في صوت لاهث: إنها رائعة يا صديقي . . كل ما فيها فاتن ومثير . . كأنها قطعة آيس كريم محلاة بالشيكولاته في صحراء قاحلة لا زرع فيها ولا ماء .

فحدق «نادر» في صديقه مندهشاً لحظة وقال: منذ متى صرت تطرق الشعر يا عزيزي . . وقد كان رأيك أن الشعراء قوم خائبون يقولون في شعرهم ما لا يقدرون على فعله .

وقطب حاجبيه في عدم رضا وهو يحدق نحو ذات الشعر العسلي مواصلا: لست أرى في هذه الفتاة أي مواطن للجمال، فهي نحيفة كأنها تعاني من أنيميا حادة . . هذا بالإضافة الى أن لون شعرها لا يعجبني .

وغمز بعينيه مضيفا: كنت أظنك تشاركني الإعجاب بالشقراوات . . فما الذي غير رأيك وذوقك سريعا؟

عاد «علاء» يسأله دون أن يحول بصره عن ذات الشعر العسلي: أخبرني . . هل تعرف شيئا ذا أهمية عنها؟

هز «نادر» كتفيه قائلا دون اهتمام: لست أعرف الكثير فلم ألمحها غير مرات قليلة في الجامعة، ولا شك أنها طالبة جديدة في كلية التجارة. . وإن كانت رقتها ونحافتها الزائدة تجعلها تبدو وكأنها صبية في الإعدادية.

فغمغم «علاء»: إنها رائعة يا صديقي. . فاتنة. . وسر جمالها يكمن في تلك الرقة والضعف المحيطين بها. .

حدق «نادر» في صديقه مندهشاً، وهتف يسأله: هل تتكلم بجدية. . هل أعجبتك هذه الفتاة حقا؟

رفع «علاء» حاجبيه السوداوين هاتفاً: أو هل تظنني أهزل؟

فكرر «نادر» في دهشة أكبر مستنكراً: هل أعجبتك هذه الفتاة حقا؟

هتف «علاء» محتجا: ولماذا لا يا أخي. . ما الغريب في ذلك؟

هز «نادر» رأسه في رفض قاطع قائلا: مستحيل أن أصدق أنك أعجبت بها. . لقد كنت تصادق من هي أجمل منها وأرق وأشيك ألف مرة. . وكنت تتركهن في بساطة ودون أي إحساس بالذنب من أجل فتاة أجمل قليلاً. . فما الذي يجذبك في هذه الفتاة المتواضعة الجمال؟

أدار «علاء» وجهه . . كانت ثمة حيرة خفيفة في عينيه . . وغمغم في بعض الدهشة:

ـ أنا نفسي لا أدري ما الذي أعجبني فيها . . إن ثمة شيئا خفيا يجذبني إليها بطريقة لا أستطيع مقاومتها . . وما يدهشني أكثر هو أنني حاولت لفت انتباهها أكثر من مرة ولكنها تجاهلتني كأنما لم يكن لي أي وجود حولها .

حدق «نادر» في صديقه بشك ، وقال بعد لحظة: هل هي لعبة من «دون جوان» الكلية من أجل الإيقاع بفتاة جديدة وضمها الى قائمة معجباته التي لا تنتهي . . أم أن تجاهلها لك قد أثارك وحفزك الى العمل وإلقاء قصائد الأشعار؟

ولكن «علاء» لم يعبأ بالرد وواصل شروده وتعلقه بذات الشعر العسلي . .

وتوقف الأتوبيس على مشارف بحيرة «قارون» في «الفيوم» . . فتدافع ركابه للهبوط وهم يصفقون ويغنون . . وعلا صوت المشرف على الرحلة قائلا: سوف يكون مكان تجمعنا وتلاقينا هنا في هذا المكان . . فمن يرغب في البقاء معنا فأهلاً وسهلاً . . ومن يرغب في التجول بعيداً فعليه العودة قبل السابعة مساء . وبعد دقائق انقسم الطلبة الى عدة

مجموعات . . بعضها فضل التجول واستكشاف المدينة ، وبعضها الآخر انهمك في لعب الكرة . . وقلائل أخرجوا سنانيرهم لصيد الأسماك من البحيرة الكبيرة قاصدين الوحدة والهدوء وتأمل الطبيعة الساحرة حولهم .

أما ذات الشعر العسلي فبدا أنها تميل الى الوحدة . . وسارت دون رفيقٍ فوق شاطئ البحيرة ، وهي تتطلع الى سطحها الرائق . . وقد شمرت بنطالها حتى لا تبتل ، وحملت حذاءها القماش تحت إبطها . . وبدت على البعد مثل صبية صغيرة لا يخجلها أن تسير حافية وسط عشرات العيون الفضولية .

وتحرك «علاء» خلفها . . فترامق بعض زملائه وهم يكتمون ابتسامتهم . . وقال أحدهم:

ـ لقد وقع «دون جوان» على صيد جديد .

وقال آخر إن «نشوى» و«نجوى» و«هيام» يدبرن خطة للانتقام منه . . بعد أن أوهمهن بحبه ثم تركهن في النهاية . . فقد تحالفن جميعاً ضده .

أما «نادر» فراقب صديقه وهز كتفيه في حيرة . . كان مسلك «علاء» يبدو مختلفاً هذه المرة . . فهو منذ دخوله الى

الجامعة حتى السنة النهائية التي توشك على الانتهاء بعد أسابيع قليلة، وهو يعرف أسلوب صديقه جيداً. . فما أن يعجب بفتاة جميلة حتى يبدأ في التقرب منها يساعده في ذلك قامته الرياضية وملامحه الوسيمة وأناقته. . وعن طريق عبارات الغزل والإعجاب التي يكيلها لها ليل نهار يدور عقل تلك الفتاة وتظن أنها عثرت على فتى أحلامها. . فيتبادل الاثنان وعود الإخلاص والوفاء وآمال الزواج بعد الانتهاء من الدراسة. .

ثم تفيق تلك الفتاة ـ أي فتاة ـ على الحقيقة عندما تشاهد «علاء» يصادق فتاة جديدة لا تقل جمالاً. . بعد أن أهملها إهمالاً تاماً فيصم أذنيه عن عبارات التوسل والاسترحام، ولو كانت قائلتها هي «فينوس» نفسها، حتى صارت له شهرة مدوية في ذلك الأمر لدرجة أن الجميع أطلقوا عليه لقب ألـ «دون جوان». . فما من فتاة أراد مصادقتها. . وأعيته الحيل في ذلك أبداً.

وهمس «نادر» لنفسه: لعل «علاء» أحس بالملل من صنف الجميلات. . ولذلك يرغب في مصادقة صنف آخر. . أكثر سذاجة وأقل غرورا. . وجمالا.

اقترب «علاء» من ذات الشعر العسلي . . لم يعد يفصله عنها غير خطوة واحدة . . هتف يقول من الخلف متظاهرا بعدم الاهتمام: إن منظر البحيرة رائع حقاً، ويستحق البقاء على شاطئها للتمتع بها .

التفتت هي إليه . . تطلعت الى فكه القوي وشاربه وعينيه اللتين تفيضان بنظرة آسرة جذابة . . وحتى شعره الحالك السواد كان يزيده وسامة وقد أسقط بعض خصلاته الناعمة فوق جبهته . . كأنه مثال لرجال اليونان القدامى الذين كانوا آية في الجمال والرجولة .

وأجابته ذات الشعر العسلي في صوت أقرب الى الهمس: نعم . . إن السير على شاطئ البحيرة ممتع حقا .

وفي الحال صار بجوارها، ومد يده مصافحا قائلاً: أنا «علاءحسين» . . طالب بالفرقة الرابعة من كلية التجارة .

فمدت يدها خجلة تصافحه في بعض الارتباك قائلة: وأنا «نيللي سالم» . . طالبة بالفرقة الرابعة أيضاً .

فتأملها في دهشة قائلاً : ولكني لم أشاهدك في الكلية أكثر من مرة أو أثنتين من قبل .

أجابته باسمة: هذا لأنني منتسبة لا أحضر إلا قليلاً . . وأغلب أوقاتي أبقاها في المنزل للاستذكار . . ولكن لأنني صرت في العام الأخير كان من الضروري حضوري للاستماع للمحاضرات بانتظام .

هتف «علاء» : رائع . . يمكنني إذن أن أشرح لك أي شيء يستعصي عليك فهمه في دروسك أو محاضراتك . . فإنني أحصل على أعلى التقديرات كل عام وأواظب على حضور المحاضرات .

فغمغمت في خجل: شكرا لك .

ورآها تقبض بين أصابعها على عقد من الفل ، فقال باسما: هل تحبين الفل؟

فهمست تجيبه: ومن لا يحبه؟

قال بسرعة: أنا أيضاً من عشاق الفل . .

وتطلع الى عينيها اللتين كان لهما لون العسل أيضاً . . فتورد وجه «نيللي» بشدة لنظراته المقتحمة الجريئة ، وغمغمت وهي تنكس بصرها سريعا: بعد إذنك .

وتحركت مبتعدة ولكن «علاء» لم يكن ممن يستسلمون سريعا . . وقد أدرك منذ اللحظة الأولى أن ثمة إعجابا من صاحبة الشعر العسلي له يطل من عينيها ، وأسرع خلفها قائلاً:

لا أنصحك بالسير وحيدة على الشاطئ. . ففي العام الماضي أوشكت زميلة على الغرق في البحيرة وأنقذناها في اللحظة الأخيرة.

كان جذابا. . وتطلعت إليه «نيللي» باسمة. . وهمست ضاحكة تقول: وهل كنت أنت من أنقذها من الغرق؟

بادلها ابتسامتها وقال: لا. . فقد سبقني الى إنقاذها بعض الزملاء.

وأشار الى ملابسه الأنيقة مضيفاً: كما أنني أخشى على ملابسي من البلل.

هزت «نيللي» كتفيها قائلة: لا أظن أنني سأتعرض للغرق. . ومن ثم ليس هناك مبرر لقلقك علي.

وأضافت في ابتسامة أرق: كما أنني أجيد السباحة.

وسارت مبتعدة دون أن تنتظر رداً. .

وبقي «علاء» مكانه وهو يشعر بالغيظ الشديد. . كانت وسامته عاجزة هذه المرة عن أن تيسر له طريقا الى قلب تلك الفتاة بالرغم من هزالها وشحوبها.

واقترب منه «نادر» قائلا في بعض التهكم: يبدو أنك فشلت يا صديقي. . للمرة الأولى.

ولكن «علاء» رمقه في حدة وسار مبتعداً دون أن ينطق بحرف، وقد تجهمت ملامحه، وبدا في عينيه بريق غاضب.

وضرب «نادر» كفا بكف في دهشة مغمغما لنفسه: لست أفهم ما يحدث حولي.. وفيمَ يفكر «علاء» هذه المرة.

وخطرت في ذهنه فكرة خاصة اتسعت لها عيناه بدهشة بالغة، ولكنه هز رأسه سريعا مغمغما: لا.. مستحيل أن يكون «علاء» قد وقع في الحب حقيقة.. فهو من الصنف الذي لا يدق قلبه أبداً.. وحتى لو حدث.. فلا أظن أن قلبه يدق لمثل هذه الفتاة!

وانضم الى بعض زملائه متناسياً كل ما حدث.

أما «علاء» فراح يسير على مسافة من «نيللي» وقد افتقد جرأته التي اشتهر بها.. كان يشعر أن ثمة شيئا عجيبا يأخذ قلبه هذه المرة.. هناك شيء لا يفهمه قد سيطر عليه منذ وقع بصره على تلك الفتاة لأول مرة.. لم يكن السبب الوحيد تهربها منه وقلة اكتراثها به.. ولكن كانت ثمة جاذبية خاصة تشده إليها بقوة لا تقاوم.. وحتى أنفاسه قد تسارعت منذ لحظها.. وقلبه قد راح يدق عنيفا.

فغمغم لنفسه في ارتباك وحنق: لا يمكن أن أكون قد وقعت في هوى هذه الفتاة النحيلة.. مستحيل!

وجفف عرقه وهو لا يجد الجرأة ليحاول مخاطبتها مرة أخرى . . فعاد الى زمرة زملائه وعقله غائب عنهم .

لم يتح له أن يشاهد «نيللي» مرة أخرى إلا أثناء عودتهم في الحافلة . . فقد اختفت عن عينيه طوال النهار . . ورآها وهي تصعد الى الحافلة وتأخذ مكانها الأول دون أن تلتفت صوبه . . كأنما لم يعد له وجود مرة أخرى تحت بصرها . وقد كست ملامحها ابتسامة هادئة تنم عن سعادة وهناء . .

واختار «علاء» مقعداً قريباً منها . . وراح يشخص إليها في لهفة . . واستدارت «نياللي» مصادفة وهي تبحث عن زميلة لها فوقع بصرها عليه .

ورمقته لحظة واتسعت ابتسامتها قبل أن تدير وجهها للناحية الأخرى وتنهمك في حديث مع إحدى زميلاتها . .

وأوشك على أن ينهض من مكانه ويحدثها ، كأن الابتسامة التي رمته بها كانت مفتاحاً أو دعوة له . . ولكنه تنبه الى النظرات الساخرة من حوله . .

نظرات «نشوى» و«نجوى» و«هيام» وهن يرصدنه بعيون كالصقر . . فتراجع وبقي مكانه في غيظ وهو لا يقدر على

الحركة خشية أن ترميه إحداهن بعبارة طائشة تفضحه أمام «نيللي» وتفسد كل تدابيره .

وبقي طوال الرحلة شاخصا ببصره عبر النافذة المفتوحة ، متسائلا عن سر ما يشعر به تجاه تلك الفتاة بالضبط؟

إهانة.. ومصالحة

وظل طوال الليل يتقلب فوق فراشه مسهداً أرقا يهفو الى النوم دون فائدة. . وبقيت عيناها شاخصتين صوبه. . يراهما تطالعانه في كل التفاتة. .

واسترجع في ذهنه الكلمات التي تبادلاها عشرات المرات. . وحاول إغماض عينيه. . حاول أن ينسى أو يتناسى ولكن ملامحها بقيت منطبعة في ذاكرته تأبى أن تغادرها أبداً. للمرة الأولى في حياته تغزوه مثل هذه المشاعر، ويتقلب أرقاً بسبب فتاة. . ومن قبل أوقع في شباك صداقته ووهم الحب عشرات غيرها بارعات الجمال والأناقة، دون أن يطرف له جفن، أو تسهد له عين!

وهمس في غيظ لنفسه مكرراً للمرة الأولى: ما الذي يحدث لي مع هذه الفتاة. . مستحيل أن أكون قد وقعت في حبها؟

قرابة الفجر غمره شعور حاد بأنه يرغب أن يراها في التو . .
وظل قلقا يذهب ويجيء في قلب حجرته مراقباً ضوء الفجر وهو ينشر أطيافه الفضية فوق العالم . . وما كادت تدق الثامنة حتى هرع يغادر المنزل . .
ولكنه لم يشاهدها تخطو من بوابة الكلية إلا بعد العاشرة بدقائق . . فهرع إليها يقطع عليها الطريق ، فهتفت «نيللي» مندهشة من المفاجأة: «علاء»؟
شاعت ابتسامة على وجه «علاء» وقال في سعادة: أنا مسرور لأنك مازلت تتذكرين اسمي .
قالت في رقة: هناك عشرات الزملاء في الجامعة أتذكر أسماءهم .
أصابه غيظ وارتباك لكلماتها المحايدة التي تؤكد له أنه لا يعني شيئاً خاصاً بالنسبة لها . . ولكنه تغلب على غيظه . . وأخرج من جيبه شيئا مده إليها ، فامتدت أصابعها في دهشة وبراءة لتلتقطه هامسة: عقد من الفل . . من أين جئت به؟
أجابها باسماً: لقد طفت بعشرة محلات الزهور الى أن عثرت على أحدها وقد فتح أبوابه مبكرا ، فأتيت لك منه بهذا العقد .
همست وقد تورد وجهها: شكراً لك . . بعد إذنك .

وقبل أن تخطو مبتعدة أسرع يقطع عليها الطريق مرة أخرى هاتفا: الى أين؟

أجابته في دهشة من سؤاله: هناك محاضرة مهمة يجب أن أحضرها.

قال محتجاً في دهشة: ولكن ألا نشرب كوبين من الشاي أولاً في الكافيتريا.. فالمحاضرات لن تنتهي.

على الفور ضاع تورد وجهها وحل محله شحوب وهتفت في بعض الغضب: أنا لا يمكن أن أسمح لنفسي بترك محاضرة لأي سبب من الأسباب.. وأيضاً لا أسمح لنفسي بمصاحبة أي زميلٍ في الكافيتريا.. حتى لا يتقول عليَّ أي زميل بما يسيء إليَّ.

وسارت مبتعدة مقطبة دون أن تضيف كلمة أخرى.. فوقف «علاء» مكانه كالتمثال وقد أخذته الدهشة، كانت المرة الأولى التي ترفض فيها فتاة دعوته..

وأفاق وغمغم في غيظ: من تظن هذه الفتاة نفسها.. إن من هن أجمل وأفضل منها ألف مرة يتمنين لو دعوتهن على شاي!

وتحرك في غيظ أشد مغمغماً: يجب أن أعطيها درساً

قاسياً . . هذه الفتاة اللامبالية . . لست أنا من تعاملني فتاة مهما كانت بمثل هذه الطريقة!

ولكن بدلا من ذلك الدرس القاسي الذي نوى إعطاءه لها وجد نفسه ينتظرها عند باب قاعة المحاضرات لحظة خروجها .

وما أن لمحها حتى أسرع صوبها وقال معتذرا: أرجو ألا أكون قد اغضبتك بما طلبته منك هذا الصباح . . وقد جئت إليك خصيصاً للتأسف .

ولكن كلماته لم تحرك فيها أي خلجة وبدا كأنه يلقي كلماته على حجر . . وقالت «نيللي» في تصلب وهي تتطلع إليه مقطبة: لماذا تسعى خلفي بمثل هذا الإلحاح . . ماذا تريد مني؟

كان سؤالها مباغتاً لم تطرحه على أذنيه فتاة من قبل أبداً . . فأجابها «علاء» مرتبكاً: أنا . .

ولكنها قاطعته في قسوة بدت غريبة على ملامحها الرقيقة قائلة: دعني أخبرك بما لا يمكنك أن تعترف به لنفسك أيها الـ «دون جوان» .

صدمته عبارتها كأنه تلقى لطمة قاسية مفاجئة أفقدته توازنه . . وفي الحال لمح وجه «نشوى» و«نجوى» و«هيام» وهن ينظرن صوبه من بعيد وفوق شفاههن ابتسامات ساخرة

فأدرك السر في معرفة «نيللي» بلقبه الشهير . كما أدرك أن أشياء كثيرة عنه قد وصلت الى أذنيها .

وقبل أن يجد رداً مناسباً واصلت هي في تقطيب أشد: إنني أريد أن أخبرك بشيء لصالحك وهو أن مثل تلك المحاولات البلهاء من جانبك لاستمالتي لن تفيدك بشيء . . فوقتي وأخلاقي لا يسمحان لي بالإنصات الى مثل هذه المغازلات أو إضاعة الوقت بالجلوس في الكافيتريا . . وكان أولى بك أن تهتم بدروسك لأن امتحانات آخر العام تبقت عليها أسابيع قليلة .

وأضافت في تهكم جارح: حتى لا ترسب وتعيد السنة الدراسية كما حدث لك في العام الماضي والذي قبله .

أصاب «علاء» غضب حاد . . وأحس بالإهانة لاسعة تكوي كرامته . . ودون وعي علا صوته في غضب حاد صائحا: من تظنين نفسك أيتها المغرورة . . أنت لست سوى فتاة تافهة ساذجة ، ومن كان مثلي لا يمكنه أن يصادق طفلة غريرة بلهاء لا تستحق غير نظرة استهزاء .

وتركها وسار ينتفض غضباً .

وتطلعت عيون كل الزملاء والزميلات صوب «نيللي» في دهشة وفضول . . وأحست هي أن كل العيون تحاصرها

وتنهشها وتعري مشاعرها . . وتلوك سيرتها مع ذلك الـ «دون جوان» رغما عنها .

ولم تشعر إلا وهي تنفجر في البكاء بحرقة شديدة . . ثم هرولت تغادر المكان وهي لا تكاد ترى أمامها .

وبعدها لم تشاهده أبداً . . وعاشت الأسبوع التالي في دوامة من الألم والحزن لكل ما جرى دون ذنب منها . . وتحاشت نظرات زملائها بعد أن صارت شهيرة في الجامعة بأنها الفتاة التي صدت «علاء» ولقنته درساً قاسياً .

ثم نسي الجميع كل شيء وشغلتهم عنها الامتحانات القريبة . .

أما هي فلم تنس . . وفي كل لحظة كانت تتوقع أن تراه . . محاولا التودد إليها مرة أخرى بعقد من الفل . . أو ربما ثائراً أو غاضباً لصدها له . . كانت موقنة أنه لن ييأس وسيظل مطارداً لها دون هوادة .

ولكنه اختفى عن عينيها الأسابيع التالية . . وشغلتها امتحاناتها . . وفي اليوم الأخير وبعد أن أنهت امتحانها ووقفت وسط بعض زميلاتها تناقش إجابتها معهن . . لمحته وهو واقف بعيداً عنها يرمقها بنظرة صامتة . .

نظرة فيها الكثير من اللوم والعتاب . . والألم .

ولكنها أبعدت عينيها سريعا وقلبها يدق في عنف . . كانت نظراته فيها من الشجن والحزن أكثر مما فيها من الإحساس بالغضب والثأر لكرامته الجريحة .

وهمست لنفسها في ارتباك وألم: سوف يحاول محادثتي دون شك . وسأعتذر له عن إهانتي السابقة . . فقد كنت أنا البادئة .

ولكنه لم يحاول حتى الاقتراب منها . . وطأطأ رأسه وغادر الجامعة برأس منكسة .

وظلت الأيام التالية وعيناه لاصقتان ببصرها . . في كل لحظة يخيل لها أن عينيه تطالعانها من كل ركن حولها . . ومن كل الوجوه في نظرة جريحة لائمة . . وصارت تراه حتى في أحلامها . .

الغريب أنها كانت تسعد برؤيته في أحلامها . . وكان عقلها الباطن يتمنى رؤيته على عكس عقلها الواعي الذي كان يرفضه .

ويوم إعلان النتيجة فوجئت به . . كان واقفا أمام لوحة نتائج طلبة الفرقة الأولى . . وعندما لمحته تسمرت مكانها . . وتعالت أنفاسها وتسارعت وخيل لها أنها قد تفقد وعيها في

نفس اللحظة. فرؤيته المباغتة مفاجأة لم تتوقعها. . وإن كانت قد تمنتها كثيراً. وخشيت أن يهرول مبتعدا كالمرة السابقة. ولكنه تقدم نحوها في هدوء. . لم تكن عيناه تفيضان ألماً وحزناً. . بل كان يسكنهما شكر عميق. . وقال باسماً:

ـ مبروك. . إنك من الاوائل. . وستكونين معيدة في الجامعة بإذن الله.

أجابته بأنفاس متقطعة من المفاجأة: أتقول الحق؟

ووقع بصرها على النتيجة. . كان صادقا. . وغمرها إحساس القلق والأسف لأجله، فهتفت في اندفاع تسأله: وأنت؟

كست عينيه تعابير حزينة قبل أن يجيبها، فبادرته في توتر وخوف: هل رسبت؟

ولكنه همس يجيبها: لا. . لم أرسب. . ولكني كنت أتمنى لو كانت نتيجة امتحاني عالية مثلك حتى أثبت لك أنني تغيرت حقا. . ونتزامل أيضاً في التدريس.

كانت كلماته توحي بشيء ما لا يخفى. . وهي في اضطرابها لم تلمح ما كان ظاهرا عليه، فقالت تسأله: أين اختفيت بقية العام قبل الامتحان؟

نكس بصره وأجابها باحساس عميق من الخجل: بعد أن

تراشقنا بالكلمات الجارحة، غادرت الجامعة وأنا أشعر بغضب شديد.. ورغبة في الإساءة إليك والانتقام منك.. ولكن عندما اختليت بنفسي وجدتني أحاسب ذاتي حساباً عسيراً لأول مرة في حياتي.. فاكتشفت كيف أسأت إليك، وكيف كنت أنت على حق في كل ما قلته عني.

غمغمت في إحراج: أنا آسفة.. لم أكن أقصد.

ولكنه هز رأسه في اقتناع مجيباً: بالعكس.. لقد جعلتني كلماتك وصدك لي أفيق من أوهامي وأرى نفسي على حقيقتها للمرة الأولى.. وقد أحسست أنني لن أقوى على مواجهة زملائي مرة أخرى فامتنعت عن الذهاب الى الكلية في نفس الوقت الذي عاهدت فيه نفسي على أن أنجح هذا العام وبتفوق.

وواجهها بابتسامة رقيقة ضاعفت من جاذبية ملامحه وعينيه وواصل: وأنا مدين لك بهذا النجاح..

غمغمت في سرور: أنا سعيدة حقا لأسمع منك هذه الكلمات.

وواصل «علاء» في خجل: وفي الوقت ذاته فإنني في خجل منك بسبب إهانتي لك وتلك الكلمات التي اتهمتك بها دون وعي.

شاعت ابتسامة رقيقة على وجه «نيللي» وقالت في صدق

وبراءة: لقـد نسيت هذا الأمـر . . ولا أتذكـر الآن غـيـر نجاحك . . وتغيرك . . أنت لا تتخيل سعادتي الآن بذلك .

حـدق «علاء» في عـينيهـا بشـجن وهمس: إن الفضل يعـود إليك . . وحدك .

أصـابتهـا كلماتـه بشيء من الارتباك . . كـانت لهـجتـه ناعمـة وصـادقة ، وبدا لهـا أنه مـوشك أن يعـترف لهـا بشيء خـاص . . وكـانت تتـمنى لو أنهـمـا ظلا واقـفين يتـحـدثان ويتـرامقـان وقـتـا طويلا . . كـأنها تعـوض أيام غيـابه الطويلة عنها . . وتطلعت إلـيه تملأ روحها من قسماته الوسيمة . . كان جذابا بشكل لا يقاوم .

وأفـاقت «نيللي» من شـرودهـا ولاحظت نظرات زمـلائهـا وفضولهم فقالت مقترحة:

ـ ما رأيك أن نجلس في الكافيتريا لتناول مشروب .

أصابته دهشة لاقتراحها ، فواصلت ضاحكة: أنت لم تعد ذلك الـ «دون جوان» السابق ، ومن ثم فلا خطر من مصادقتك الآن .

وأضـافت في مرح لا يخلو من أسى: كـمـا أنهـا قـد تكون المرة الأخـيـرة التي نتلاقـى فـيـهـا ، بعـد أن انتـهـت الدراسـة والامتحانات بخيرها وشرها .

ابتسم لها في ود وشكر . .

وجلسا في الكافيتريا . . وأتى لهما النادل بالشاي . . فراح «علاء» يقلبه في صمت وبدا عليه كأنه في حيرة بشأن أمر ما يوشك أن يعترف به . . ولا يجد الجرأة اللازمة لذلك .

ورفع عينيه صوبها محاولا استجماع شجاعته وقال في بعض الارتباك:

- «نيللي» . . لو أن شاباً تقدم الى والدك لطلب يدك . . فهل توافقين . ؟

تورد وجهها بشدة ودق قلبها في عنف صاخب وفكرة مجنونة ترقص في عقلها . . واستجمعت شجاعتها لترد عليه: هذا يتوقف على من يكون هذا الشخص؟

ارتعد فكه . . بدا عليه تردد أشد . . وغمغم وهو يبذل جهدا كبيرا: فلنفترض أنه . . أنا؟

أصابتها فرحة شديدة أطلقت بهجتها من عقالها . . تسارعت أنفاسها ودق قلبها بقرع الطبول . . لم يعد هناك ما تخشاه بعد الآن . . وحتى فرحتها صارت لا تخجلها من كونه يريدها لنفسه . . وحدها دون سائر الفتيات ممن هن أجمل وأغنى .

كأنما كانت تنتظر منه هذا الطلب . . كأنما كانت تتمناه . .

كأنها ما تصورته أمامها طوال الوقت واشتاقت لرؤيته إلا ليقينها بأن رباطاً وثيقاً سيجمعهما معا. . و، ولكنها جاهدت لتكبت مشاعرها وبهجتها. . كأنها صارت خجلى من أن تعترف له أنها منذ اللحظة الأولى التي حادثها فيها على شاطئ بحيرة «قارون» قد أعجبت به لولا حياؤها. . وأن غضبها عندما سمعت تلك الأقاويل عنه كادت تقطر قلبها حزنا وكمدا قبل أن توجه اليه كلماتها القاسية.

وهتفت لاهثة: «علاء». . هل تريد الزواج مني حقا؟

واصل «علاء» ووجهه منكس خجلا: إذا رفضت فلن أغضب ولكني سأحزن وألوم نفسي ألف مرة ولن ألومك أبداً. . لأنني من أخطأ منذ البداية وسأعيش عمري كله نادماً على أجمل شيء أضعته من حياتي بتهوري وطيشي.

ورفع إليها عينين ساحرتين فيهما فتنة لا تقاوم، وهمس مواصلا: أنا أريد الآن أن أعترف لك بشيء خاص لن أخجل من البوح لك به.

وحدقت فيها عيناه المتلهفتان. . ونطقت شفتاه في ارتعاد هامسة: أنا أحبك. . أحبك. . أحبك.

أصابها ارتعاد من كلماته. . شعرت أنها تسقط في دوامة

من السعادة والهناء كيف تعترف له أيضاً بأنه منذ غاب عن عينيها وهي صارت متلهفة عليه تتمنى رؤيته كما لم تتمن رؤية انسان. . كيف تعترف له أن مفاجأتها برؤيته اليوم هي أجمل مفاجآت حياتها. . وأن اعترافه بحبها يحملها فوق أجنحة السعادة الى عوالم لم تتخيل وجودها في هذا العالم.

ولكنه واصل همسه يطوقه إحساس عظيم بالذنب: لا تظني أني أخدعك فأقسم لك أن ما نطقت به هو الصدق. . أنا لا أدري حقا كيف أحببتك ولماذا. . كان الأمر أقوى من إرادتي وطاقتي. وفي حياتي كلها لم أشعر تجاه أي فتاة بما أحسه نحوك اليوم. . «نيللي». . أنا لم أعد قادراً على الابتعاد عنك بعد الآن. . ويستحيل أن أبدأ حياتي مع إنسانة غيرك. . فإما أنت. . أو يتوقف قلبي عن النبض بعد ذلك للأبد.

ومد أصابع مرتجفة لتمس أصابعها. . فأحست بخدر للمس أصابعه لكفها. . وعصفت بها سعادة لا حد لها. .

وهمست تجيبه بين اليقظة والحلم: سأطلب من أبي أن ينتظرك غداً مساء.

واختطفت حقيبتها واندفعت هاربة من وجهه خشية أن

تفضح مشاعرها كلمة أو إشارة.

ووقف «علاء» مذهولا لا يكاد يصدق ما سمعته أذناه . . ثم غمر قلبه شعور بالسعادة والراحة لا حد لهما.

مفاجأة قاسية

جلس «علاء» مرتبكا وهو يتطلع حوله وإحساس عميق بأن ربطة عنقه تكاد تخنقه، فحاول زحزحتها قليلا وتمالك تصرفاته. . وهو يلقي بنظرة أخيرة على ملابسه ليستوثق من أناقته ووسامته قبل أن يهدأ أخيراً ويغمره شعور بالاطمئنان وأنه ليس هناك أبدع مما كان!

كانت «نيللي» قد استقبلته منذ لحظات ففتحت له باب الشقة، ورآها وابتسامة عريضة تسكن وجهها ويغمرها ضياء بالسعادة والهناء. . وهمست تقول له في خجل حبيب:

ـ تفضل .

فقال لها: لقد انصرفت بالأمس دون أن تخبريني عن عنوان منزلك .

تطلعت إليه في دهشة، فواصل ضاحكاً: ولكني استطعت الحصول عليه من الجامعة!

رمقته «نيللي» في سرور: كان واسع الحيلة ولا يستسلم أبداً . . وكان هذا أكثر مما يعجبها فيه .

وقادته الى حجرة الصالون فشعر بكثير من الاطمئنان ، وود لو بقيت «نيللي» في مرمى بصره دون أن تتحرك من مكانها أو تنطق بحرف . .

كان يكفيه أن تبقى قريبة منه فيعوضها أيام حرمانه عنها . . ولكنها خرجت سريعا وتركته وحده . . وهي تشعر بضربات قلبها كأنها قرع الطبول . . قرأت من قبل عشرات المرات عن مثل تلك اللحظة السعيدة التي يتقدم فيها المحبوب طالبا يد محبوبته ، ولكنها لم تكن تظن أن تلك اللحظة بمثل هذا السحر . .

وأقبل رجل ذو شعر ناصع البياض في جلباب أبيض ممسكاً في يده بمسبحة يعد عليها ، فخمن «علاء» أنه والد «نيللي» ونهض وقد تخلص من ارتباكه . . ومد الرجل يده مصافحاً دون أن تعكس ملامحه أي مشاعر قائلاً: أهلا بك يا ولدي . .

أجابه «علاء» في ثقة بنفس التحية وقد زايله تماما ارتباكه السابق . .

فقد كان الرجل الجالس أمامه يشع طيبة وإلفة . .

وحدجه الأب بنظرة طويلة قبل أن يقول وهو يواصل عد

حبات مسبحته: أخبرتني «نيللي» بأنك طلبت مقابلتي . . وأنها حددت لك موعدا . . فلمتها لأنها لم تستأذني أولاً .

كان في عبارته لوم خفيف ولكن «علاء» أجابه بابتسامة عريضة: أنا آسف يا عمي . . ولكن لم تكن هناك فرصة أخرى . . لأنني أنهيت دراستي هذا العام . . وكذلك «نيللي» . . وكان أمر رؤيتنا لبعضنا البعض مرة أخرى يكاد يكون معدوما .

أومأ الأب برأسه مغمغما: هكذا الشباب دائما . . متعجل في كل شيء .

وتفرس في «علاء» بعينين عميقتي الغور كأنه يحاول قراءة أفكاره . . فأحس «علاء» ببعض الارتباك أمام العينين النافذتين وشعر ببعض جفاف في حلقه ، فغمغم محاولاً استعادة رباطة جأشه: لقد جئت في طلب يد ابنتك يا عمي ويشرفني ذلك .

فنكس الرجل رأسه وغمغم: هذا مفهوم طبعا . . ولكن أخبرني ماذا تعمل؟

أجابه «علاء» في فخر: أنا أنهيت دراستي منذ أيام قليلة . . وسأبحث عن عمل بإذن الله .

ارتسمت نظرة ساخرة في عين الأب وقال: ما شاء الله . . أنت بلا عمل وتجيء خاطبا؟

شحب وجه «علاء» ولم يجد ما يرد به. . وواصل الأب في صوت بارد: لا بد إذن أن والدك ثري وأنت تعتمد عليه في تدبير نفقاتك وتأثيث شقة ملائمة وإيجاد عمل مناسب لك.

ورمق الأب ملابس «علاء» الأنيقة وقد استنتج منها ثراء أسرته. . ولاحظ «علاء» نظرات الأب وأدرك ما يفكر فيه، فقال في صوت شاحب أقرب الى الهمس:

- إن والدي موظف متوسط الحال. . وأنا سوف أقوم بتدبير كل لوازم الزواج. . بعد أن أعثر على العمل المناسب إن شاء الله.

اشتعلت عينا الأب بنظرة قاسية. . ورسمت شفتاه ابتسامة مستنكرة ساخرة وقال:

- ما شاء الله. . أنت تريد من ابنتي أن تنتظرك عشر سنوات على الأقل حتى تكون مهيأً للزواج بها. . هل أنت تهزل؟

تعقد حاجبا «علاء» وهتف: لا يا عمي. . أؤكد لك، أنا جاد في كل ما أقوله. . فإنني سأعمل بجدية لأكون جديرا بـ «نيللي» و. .

قاطعه الأب في عنف: دعك من الوعود. . فهناك مئات من ألوف الشباب تخرجوا منذ سنوات دون أن يجدوا عملا

وصار مستقبلهم في مهب الريح . . وحتى لو وجدت عملاً أتدري كم سيكون راتبك وكم ستدخر منه لتتمكن من شراء الشقة المناسبة وتأثيثها؟

وجمدت عينا الأب في قسوة وتوقفت أصابعه عن عد حبات المسبحة وجاء صوته حادا باترا: أنا آسف . . يبدو أنك أخطأت العنوان . . فليس لدي ابنة للزواج .

شحب وجه «علاء» . . أحس بطعنة غائرة وهتف بصوت ذبيح: ولكن يا عمي . . إنني أحب «نيللي» . . وهي أيضاً إذا سألتها ستخبرك بأنها متمسكة بي و . .

هب الأب واقفا وقد عصف به غضب حاد فبتر «علاء» عبارته رغما عنه وصاح الأب وكل بدنه يرتجف: ما شاء الله . . أنت هنا تحدثني عن الحب دون حياء . . وتطلب مني أن أسأل ابنتي إن كانت تحبك أيضاً . .

وسدد أصبعه كطلقة رصاص في وجه «علاء» صائحا في صوت هادر:

ـ أي أخلاق تلك التي تتحلى بها أيها الشاب . . وأنت تحدثني عن الحب وليس في جيبك ثمن عشائك . . دون أن يكون هناك ما تخجل منه؟

وأشار بيده في عنف مواصلاً الصياح: هيا غادر هذا المنزل حالا .

ارتعدت شفتا «علاء» . . وأحس أن جسده كله يكاد يتهاوى وأن قدميه لا تقويان على احتماله . . ولكنه تماسك وهو يشعر أنه يسقط في دوامة . . وتحامل وهو يجر قدميه منكساً رأسه نحو باب الشقة ولا يجرؤ على رفع عينيه في وجه الأب الثائر . .

وفي مدخل الصالة شاهد «نيللي» واقفة بوجه مخطوف بلون الليمون . . كانت ترتجف وتوشك أن تسقط منهارة . . وبدا من الواضح أن رأي والدها ورفضه المهين كان مفاجأة لها أيضاً .

ووقف الاثنان لحظة متواجهين . . في عيني كل منهما أمل طعين وألم حاد . . وكادت تهتف بشيء عندما ماتت الكلمات فوق شفتيها لحظة ظهور الأب .

وتحرك «علاء» مغادرا المكان وصفق الباب خلفه . . واستدار الأب وعيناه تقدحان شررا . . وتقدم صوب ابنته وصاح فيها: هل تدنت أخلاقك الى هذا الحد . . فتواعدين شابا تافها بلا مستقبل ليأتي ليطلب يدك مني ، ولا يحدثني إلا عن حبه لك وإعجابك به؟

تساندت «نيللي» على الحائط. . وهمست بصوت متحشرج: ما العيب في ما فعلته يا ابي. . لقد طلبت منه أن يأتي لطلب يدي منك، ولم أواعده أو أفعل ما أخجل منه من ورائك. . وليس عيبا أنه أحبني بل هذا شيء يسعدني.

صرخ الأب: اخرسي.

جمدت الكلمات فوق شفتي «نيللي». . خيل إليها أنها ترى أمامها شخصاً آخر غير ذلك الأب الحنون العطوف الذي عرفته عمرها كله. . وحتى أمها وقفت كالمشلولة لا تجرؤ على التدخل، ورؤوس إخوتها الصغار تطل من فتحة حجرتهم في قلق وخوف.

وواصل الأب في عنف: إنه ليس سوى شاب تافه لا تهمه غير أناقته الزائدة ولا يشغله حتى أمر مستقبله أو كيف سيبني منزلا ويؤثثه. . وكل ما يريده هو أن أجعلك تنتظرينه سنين طويلة. . هذا السفيه الأحمق. . الذي يبدو سنه أكبر منك بخمس سنوات على الأقل لا شك أنه قضاها راسباً في الجامعة!

غمغمت محتجة: ولكن يا أبي. .

هزها من كتفيها بعنف بالغ صارخا: ولكن ماذا. . هل

تحبينه أنت الأخرى أيتها الحمقاء والسيئة الأدب . . أم هل تواعدتما على الزواج من قبل دون أن تسأليني رأيي؟

إندفعت الأم هاتفة: اهدأ يا سالم . . إن ابنتك لم تفعل ما تخجل منه . . وهي لم تخطئ إن دعت هذا الشاب الى بيتها ليقابلك ويطلب يدها منك .

التفت الأب الى زوجته في غضب هادر صائحاً:

ـ يبدو أنك نسيت أيضاً إن ابنتك مخطوبة منذ سنوات بعيدة .

تساءلت «نيللي» في ذهول: أنا مخطوبة . . لمن؟

أجابها والدها في عنف: إنه «مرسي» ابن عمك . . فقد وعدت أباه بذلك قبل وفاته وقرأنا الفاتحة معا .

غمغمت «نيللي» في ذهول قاتل وهي تتراجع للخلف كما لو كانت تلقت طعنة:

ـ «مرسي» ابن عمي؟

واصل الأب في حدة: لو أنك سألتني قبل إعطاء موعد لهذا الشاب لمقابلتي ، لأخبرتك بالحقيقة .

تطلعت «نيللي» الى والدها في ذهول مغمغمة: إذن فهذا هو السبب الحقيقي الذي رفضت «علاء» لأجله ، وليس لأنه بلا عمل ولا مال؟

زمجر الأب بعينين ناريتين: هل ستحاسبينني أيتها الوقحة؟

ارتعشت شفتا «نيللي» . . وفي صوت ميت قالت: لا يا أبي لن أحاسبك . . ولكن أيضاً لن أتزوج شابا جاهلا لا يتباهى بغير ماله وتجارته . . حتى لو كان ابن عمي .

صرخ الأب في ثورة: هل تتحدينني أيتها الوقحة؟

وهوت كفه فوق صدغ «نيللي» فارتطمت رأسها بالحائط لشدة عنف الضربة . . فتهاوت على الأرض والدماء الغزيرة تندفع من فمها . .

وصرخت الأم في فزع ولوعة وهي تميل على ابنتها: «نيللي» .

ولكن الأب واصل صياحه في ثورة أشد: إنها لن تتزوج غير ابن عمها . . وإن رفضت فموتها أفضل عندي من بقائها على قيد الحياة .

واندفع الى حجرته . . دون ان يعبأ بصراخ زوجته . . وابنته الممددة على الأرض غارقة في دمائها .

خطوبة حزينة

همست «نيللي» في ضعف: لا يا أبي . . لا تجبرني على ذلك . . لا أريد أن أتزوج «مرسي» .

وراح جسدها كله يرتعش وينتفض . . ثم تنبهت على صوت نهنهة بكاء بجوارها . . وفتحت عينيها فشاهدت والدتها جالسة بجوارها . . احتضنتها أمها في لهفة هاتفة:

ـ آه يا ابنتي . . حمدا لله على سلامتك .

تنبهت «نيللي» الى فكها الذي كان يؤلمها . . وتذكرت صفعة والدها ونوبة الإغماء التي أصابتها . . وقالت الأم: لقد أصابنا الذعر لما حدث لك . . ولكن والدك رفض برغم ذلك أن نأتي حتى بطبيب .

أدارت «نيللي» وجهها الناحية الأخرى في مرارة قائلة: لم يكن أبي بمثل هذه القسوة أبداً . .

عضت الأم شفتيها في ألم هاتفة: أنا لا أدري ماذا حدث له . . فهو يبدو عنيفاً حاداً . . بل إنه . .

وصمتت الأم كأنما لا تقدر على بقية الحديث، وتشنجت أصابعها فوق كفي ابنتها الذابلة، فهمست «نيللي» في إعياء: ماذا حدث يا أمي؟

ملأت الدموع عيني الأم وهي تقول: لقد أرسل والدك في استدعاء «مرسي» . . واتفقا على أن تكون خطبتكما يوم الخميس القادم . . دون أن يخبره بأمر هذا الشاب الذي تريدينه .

صرخت «نيللي» في صوت مرتاع: لا يا أمي . . لا . . لا يمكن أن يفعل أبي ذلك بي . . إنه لم يرغمني في حياتي على شيء لا أرضاه، فكيف يفعل بي ذلك الآن .

وظهر هيكل الأب بقامته الفارعة وشعره الأبيض في مدخل الباب . . وقال في صوت حاد باتر: سيكون زواجك من ابن عمك بعد الخطبة بشهر واحد . . فعليك أن تستعدي لذلك منذ الآن .

وغادرها وهي غارقة في دموعها . . فأخفت «نيللي» وجهها بكفيها غير مصدقة ما يحدث لها . . كأنها صارت لا تملك من

أمر نفسها شيئا . . كأنها اداة بلا إرادة أو وعي . . كم مهمل لا قيمة له حتى في اتخاذ أي قرار يتعلق بها . .

بحياتها ، بنفسها . . بمن أحبت . .

وأغمضت عينيها ودموعها تغرق وسادتها . . ومن وسط شهقاتها خيل لها أنها ترى وجه «علاء» يتطلع إليها في ألم وحزن . .

همست في لوعة: آه أيها الحبيب . . الموت أهون عندي من أن أتزوج رجلا غيرك .

ولكنها كانت تدرك . . أن إرادة أبيها هي النافذة في النهاية . . فهي لم تتعود إلا على الطاعة . .. ولم تجرؤ في حياتها كلها على مخالفة أوامر أبيها .

واستعاد عقلها ذكريات قديمة ظنت أن النسيان قد طواها قبل أن تعيدها يد القدر حية الى ذاكرتها مرة أخرى . .

عاشت هي و«مرسي» في بيت واحد . . كان والده شريكا لوالدها في تجارتهما . . وجمع بيت واحد بين الأسرتين . . فنشأ الصغار كإخوة وليسوا أبناء وبنات عمومة .

ووعت الحياة ووجودها كله يحيطه «مرسي» بسياج ضخم حولها . . كان يعتبر نفسه رقيباً عليها وحسيباً . . يمنعها من

اللعب مع الأطفال الآخرين. . ويكاد يحرمها حتى من الابتسام لأي طفل آخر أو حتى من الوقوف في النافذة.

وأحبت هي اهتمامه بها. . شعرت بأنها شيء ثمين ذو قيمة بالنسبة له. . وتدللت عليه برغم طفولتها. . وذات يوم وهي غارقة في أوهام طفولتها وعتبات سنواتها العشر التي دنت من عالم المراهقة، وقف أمامها «مرسي» وهو يرتعد كأنه يوشك أن يحدثها في أمر خطير. .

كان يكبرها بأربعة أعوام. . ولكنه أمامها كان يبدو وكأنه أصغر منها بتهوره وطيشه واندفاعه. . وخيل إليها أنه قد أصابته حمى وهو يهمس لها: «نيللي». . أنا أحبك.

كانت أول مرة تسمع فيها كلمة الحب. . ودون وعي وبلا إدراك قالت ضاحكة:

ـ أنا أيضاً أحبك.

فاحتقن وجهه بفرحة هائلة، وقفز صوبها محتضناً كفيها بين يديه هاتفاً:

ـ إذن هل تتزوجينني عندما نكبر؟

أسعدتها كلمة الزواج. . وتخيلت نفسها في فستان الزفاف

والبنات من حولها وهي كالبدر المنير وسطهن. . وهتفت في براءة: أنا موافقة.

ويومها أحست أن «مرسي» هو أسعد إنسان في العالم. . وأصر على أن يشتري لها بكل ما يملك حلوى كثيرة أسعدتها. . كأن تلك الحلوى مهرها. . وأصبح أرق وألطف عما كان.

وبعدها بقليل انفصل الشريكان. . أبوها وأبوه. . في العمل والسكن. . وصارت لا ترى «مرسي» إلا لماما. . وأدهشها أنه تغير كثيراً. . ترك المدرسة وتفرغ للتجارة مع أبيه. . وحتى هيئته تغيرت فزاد وزنه بطريقة غريبة وزادت خشونته وقلة اهتمامه بملابسه وحتى ذلك الوسخ الذي اعتادت أن تراه على ملابسه وملامحه، تحول إلى إنسان آخر. . وغابت عن ذاكرتها ذكرياتها القديمة. . إلى أن عادت حية مرة أخرى من قلب الماضي. . وقد اقتحم «مرسي» ابن عمها حياتها مرة أخرى. لم تدرك أن «مرسي» لا يزال يريدها حتى تلك اللحظة، وأنه على استعداد لسحق إرادتها وكيانها من أجل تحقيق رغبته في الارتباط بها. . مهما كانت هناك هوة واسعة تفصلهما.

ما كانت تتخيل أن ذكريات الطفولة لا تزال حية في عقله . . وأنه عاش سنوات طويلة ولا حلم له غيرها . . وهي كلما تقدمت في دراستها وواصلت نجاحها ، زاد ارتباطه وتشبثه بها كأنها نهر حياته ، إن توقف عن الجريان ، يبست أوراق مشاعره وأصابها موت .

ومرت عليها الأيام التالية وهي بين الحياة والموت . . اليقظة وفقدان الوعي . . كأنها مقدمة على موت قريب أو حكم بالإعدام .

وهزل جسدها بشدة بعد أن امتنعت عن الطعام . . وجاءت أمها لتخبرها أن «مرسي» اشترى لها ثوبا للخطوبة كلفه أكثر من ألفي جنيه واشترى لها مصاغاً ذهبياً يزيد ثمنه عن العشرة آلاف . . فبكت في حرقة وكرهت كل المصاغ وأثواب الأفراح . .

وتمنت لو أنها شاهدت «مرسي» . . لو توسلت إليه باسم قرابتهما . . باسم الذكريات القديمة الحلوة . . باسم أي شيء يرق له قلبه ويحرك نخوته لكي يتركها لمن تحب . . ولكن والدها لم يتح لها هذه الفرصة أبداً .

وجاءت الليلة الموعودة وقد نقص وزنها كثيراً وصارت كأنها شبح وارتدت ثوب الخطوبة كما لو كانت ترتدي

كفنا . . وفشلت كل مساحيق التجميل والزينة في إخفاء تعاستها وشحوبها القاتل .

وبجوارها جلس «مرسي» . . سمينا بوجه يترجرج شحماً وشارب مهدل مصبوغ بدخان السجائر . . وبذلة انتقاها له أحد عمال تجارته لأن وقته لم يتسع لشرائها .

ومن مكانه راح يحيي الحاضرين كأنما هو قائد مظفر بعد معركة عسيرة وهو قابض على أصابع «نيللي» كأثمن شيء امتلكه في حياته .

وبين اليقظة والغيبوبة رأته يضع دبلته في يدها . . ويحكم من وضع الأساور الذهبية في معصمها كأنها قيود يضعها سجان حول معصمها . . وهمس يقول في لهفة:

- «نيللي» . . ما أسعدني اليوم . . كأنني كسبت مليون جنيه .

لم تهمس هي بكلمة . . لم تنطق . . لم تبك . . حتى أنفاسها تمنت لو أنها كتمتها للأبد .

وعندما انصرف المدعوون بقيا وحدهما . .

وأحست بدوار شديد وبدوامة تسحقها . .

وكان آخر ما وعته : «مرسي» وهو يقبل أطراف أصابعها

ويحدق فيـها بعينين واسعتين هاتفـا في صوت متلهف : أنت لا تدرين سعادتي الآن . . فـقد تحقق حلم حياتي أخـيراً بالارتباط بك . . وقـبل أن يتم هذا الشـــهـر سنكـون قـد صـرنـا في بيت واحد. ثم حـدق فيها مندهشـاً هاتفاً: «نيللي» . . لماذا لا تردين عليَّ . . ألست سعيدة بخطوبتنا؟

ولم ترد عليه . . لأنها ارتمت من فـوق مقعدها على الأرض بلا وعي . . بـعـد أن توقـف عـقلـهـا عن احـتـمـال المـزيد من التعاسة .

باسم الحب

تسلل شعاع من ضوء الشمس الوليدة عبر زجاج النافذة ليسقط فوق وجهها . . وأحست «نيللي» بالنور يخترق أجفانها ويبعث الحياة في قلبها الجريح . . فتحت عينيها فوقع بصرها على «مرسي» الجالس بجوار فراشها وعيناه تطل منهما لهفة وخوف عظيمان .

أدارت وجهها للناحية الأخرى كأنها تعلن له أنها باتت لا تطيق رؤيته . . وهتف «مرسي» في لهفة عظيمة: «نيللي» . . حمدا لله أنك استعدت وعيك أخيراً يا حبيبتي . .

أحست بكلمته الأخيرة تطعنها بقسوة وتدميها وتسلب منها البقية الباقية من إرادتها . . وواصل «مرسي» دون أن ينتبه لمشاعرها: لقد أتيت لك بطبيب أمس ، فقد فزعت لما حدث لك ، وقال الطبيب إنك تعانين من ضعف بالقلب وإرهاق

شديد وإنك في حاجة الى راحة تامة. . وكنت أود لو بقيت طوال الليل بجوارك لأطمئن عليك. . ولكنني اضطررت للعودة الى منزلي والمجيء ثانية في الصباح الباكر للاطمئنان عليك.

ومد يده كظامئ يسعى نحو نبع متفجر بالماء مواصلا في همس سعيد: أنت لا تدرين سعادتي الآن لأنني أطمأننت عليك. فلا شك أن الأيام السابقة أرهقتك كثيراً بسبب الاستعداد للخطوبة.

نزلت دموعها رغما عنها. . حدق فيها «مرسي» ذاهلا يسألها: «نيللي». . أنت تبكين. . ماذا بك. . هل أنت حزينة؟

استدارت تواجهه في ضعف وألم. . همست في مرارة: ألم تنتبه الى أحزاني والآمي إلا الآن؟

تطلع إليها «مرسي» في دهشة بالغة قائلاً: كنت أظن أنك ستكونين أسعد فتاة في العالم. . لأن أحلامنا تحققت أخيراً.

هتفت في مرارة: أي أحلام؟

عكست عيناه تعجبه وأجابها مغمغما لائماً: «نيللي». . هل نسيت. . لقد تعاهدنا على الزواج والحب منذ سنين طويلة و. .

قاطعته: كنا أطفالاً . . والآن تأتي لتقتلع قلبي وتمزق مشاعري وتدمي آدميتي لوعد أعطيته لك وأنا طفلة لا أعي شيئاً من الوعود؟

حدق فيها ذاهلا . . وغمغم غير مصدّق: إذن فأنت . . لم تعودي تحبينني . . كما كنا أطفالاً؟

ألقت ببصرها صوب النافذة وقالت في صوت جريح: الدنيا تبدل أشياء كثيرة في ساعة واحدة . . فما بالك بعشر سنوات . . أنت بالنسبة لي الآن لست أكثر من ابن عم . . ولم أكن أظن أن الألم والأسى سيأتيان من جانبك .

شحب وجهه . . بان في عينيه إحساس بالضآلة وغمغم بوجه منكس وصوت مرتجف:

ـ هل مات حبي في قلبك لأنني تركت مدرستي صغيراً وتوقفت عن التعليم؟

وقبل أن تهمس بكلمة، واصل بوجه محتقن كأنه يوشك على البكاء: أنت لا تدرين أي قدر قاسٍ حرمني من أمنيتي في أن أواصل تعليمي وأكون طبيباً . بعد وفاة أبي فاضطررت لأن أحل محله في تجارته من أجل أمي وإخوتي . . وكأنني أشارك القدر قسوته على نفسي فتركت نفسي للبدانة والسوقية كأنني

أزيد في عقابي لنفسي . . إلى أن صرت الى ما أنا عليه . .
والآن أدرك لماذا ترفضينني .

أحست «نيللي» بإشفاق عليه فقالت: لا يا «مرسي» . . صدقني . . أنا لم أرفضك لهذه الأسباب . . فأنت كما كنت وستظل ابن العم الذي يحتل من قلبي مكانة خاصة . . عزيزا مكرما مثل أخ شقيق . . ولكن أمر مشاعرنا لا نملك منها شيئاً . .

جاهد ليقول في صوت جريح: ولماذا لم تخبريني بذلك من قبل لتمنعي عني وعنك كل هذه الآلام والجراح؟

منعت دمعة حزينة من السقوط وقالت: لو أنك سألتني لأخبرتك بالحقيقة . . ولكن والدي أجبرني على أن أكون لك حتى لو كان في ذلك نهايتي .

ولم تستطع حبس مآقيها أكثر من ذلك ، فانسالت دموعها تغرقها ، وهمست وهي تتشبث بـ «مرسي» في مرارة: لقد قسا القدر عليك وأجبرك على ما لا تحب وجربت مراراً أن تفعل شيئا بلا إرادة . . فلا تكن أنت قدري الذي يجبرني على ما لا أطيق .

سألها في خفوت ووجهه منكس: إذن . . فهناك شخص آخر في حياتك؟

غمغمت في شجن: نعم .

في مرارة عاد يسألها: هل هو متعلم ووسيم . . هذا مؤكد وإلا ما وقعت في حبه . . لا شك أنه أفضل مني مائة مرة وإلا ما فضلته عني .

أخفت «نيللي» وجهها بين كفيها منهنهة: لا تزد من أحزاني وآلامي . . أرجوك .

ـ أنا آسف .

وأشاح وجهه بعيدا . وتهدجت أنفاسه كأنه لا يكاد يصدق الحقيقة الماثلة أمامه . . وتتقاذفه رغبات متباينة ومشاعر ذبيحة .

وهمست «نيللي» في توسل: لو كنت تحبني حقيقة فأنت لن تلقي بي في هذه التعاسة والأحزان . ولن تجبرني أن أعيش معك ، وقلبي معلق بإنسان آخر .

ارتعدت كفاه ، وجاهد ليتحكم في اضطرابه ، وهمس في غضب:

ـ تطلبين مني أن أتركك . . ليتزوجك رجل آخر غيري؟

أجابته متوسلة: بهذا سأحتفظ لك في قلبي بكل التقدير والإعزاز كأبن عم وحيد لم أجد غيره من يقف بجواري في محنتي . . وسأعيش وأموت وأنا أحفظ لك هذا الصنيع . .

عادت دموعها تسقط قبل أن تواصل: ويمكنك أيضاً أن

تصر على الاحتفاظ بي والزواج مني. . فأعيش معك وأنا ميتة.

أخفى «مرسي» وجهه بين كفيه مغمغما في براءة: لماذا كتب علي أن أفقد ما أحب طوال عمري؟

قبضت على كفه بين أصابعها في توسل حار قائلة: إنني أناشدك باسم حبك لي. . ألا تجعل هذا الحب مقبرة لي.

تضاعفت آلام «مرسي» وهو يقول لها: لهذه الدرجة تحبين الشاب الآخر؟

سرى في صوتها تهدج كنار تستعر في الهشيم وهي تجيبه:

- إن حبي له قدر بالنسبة لي - لا مهرب منه - فإما هو. . أو الموت.

اجتاحت وجه «مرسي» مشاعر شتى. . من الغضب الى الثورة الى الجنون. . ولكن الوجه زايلته عواصف الغضب بعد لحظة، وغمرته سكينة عجيبة.

وتحركت أصابع يده اليسرى في ارتعادة لتخلع الدبلة التي تطوق أصبع يده اليمنى وتضعها بجوارها. .

وهمس يقول: لقد ناشدتني بأعز ما أملك. . حبي لك. . ولن أستطيع أن أخيب رجاءك في. . حتى لو كان هذا الرجاء أن تكوني لرجل آخر غيري.

ونهض في حسم مواصلا: سأذهب لوالدك لأخبره بفسخ

خطوبتنا . . وسأقنعه بأن يزوجك بمن تحبين . . وسأعتبر وعده لأبي ولي بارتباطنا ، كأنه لم يكن .

أشرق الأمل في قلب «نيللي» وهتفت في فرحة طاغية: آه يا ابن العم العزيز . . أنت لا تدري كيف تضاعفت مكانتك الآن في قلبي .

ثم تهدج صوتها في نحيب مؤلم: ولكن أبي لن يوافق برغم ذلك على زواجي ممن أحب . . فقد عيره بأنه بلا مال أو عمل وطرده من بيتنا شر طردة .

أمسك «مرسي» دموعه وقال: سيكون لمن تحبين عمل منذ اليوم ، فسوف ألحقه للعمل معي في تجارتي ، وإذا شاء سأمنحه من المال ما يكفي ليبدأ مشروعا تجارياً خاصاً به على أن يسدد ما حصل عليه من المال على مهل أو حتى يشاركني أي مشروع . . وبهذا لن يكون أمام والدك أي سبب لرفضه .

ورفع عينين داميتين صوبها . . وفي صوت ممزق واصل: وإذا اضطرني الأمر لإقناع والدك فسأمنح هذا الشاب الشقة التي كنت أنوي الزواج فيها منك . . لتكون هديتي إليكما . . فلا تفترقا أبداً بعد ذلك . . ولا يعكر سعادتك أي شيء في العالم .

انفجرت «نيللي» في بكاء حار هاتفة: أنت تطوقني بجميل

لا أدري كيف سأرده لك يوماً من الأيام . . ولم أكن أدري أنك شهم ونبيل الى هذا الحد .

مد «مرسي» منديلا نظيفاً إليها قائلاً: امسحي دموعك فلا أريد أن أراك باكية بعد اليوم . . فدموعك عندي أغلى من كل أموال الدنيا . . وبعد الآن لا أريد أن أراك إلا ضاحكة باسمة مبتهجة بالحياة .

وفي همس رجاها: أرجوك ابتسمي . . لأجل خاطري .

فارتعدت شفتاها . .

وحاولت أن تبتسم . . لأجله هو . . لأجل السعادة التي منحها إياها في لحظة تفوق الخيال في نبلها وسموها . . وارتسمت فوق شفتيها ابتسامة صغيرة شاحبة .

ولكنها من وسط ابتسامتها أجهشت بالبكاء . . وهي تشعر أنها مدينة لهذا الإنسان بجميل عظيم .

وأمسكت بيده تغرقها بدموعها . . كأنها تستسمحه لأنها ضنت عليه بحبها وقلبها!

فاختطف «مرسي» يده وكل خلية في جسده ترتعد كأنما أصابته حمى قاتلة . . وخطا خارج الحجرة وهو يتمزق من الألم .

كرم زائد

انطلقت الزغاريد عالية مجلجلة معلنة عن الفرحة والسعادة. . وخطت «نيللي» الى قلب القاعة التي ارتصت بالمدعوين وهي في فستان الخطوبة الأنيق الذي جاءها هدية من «مرسي». تألقت عيناها بفرحة طاغية. . واستعاد وجهها رونقه فبدا مثل وردة ربيعية تكفي أوراقها كل أسباب الحياة.

وخطا «علاء» صوبها في لهفة وقد بدا أكثر وسامة ببذلته السوداء وشعره المصفف في أناقة. . وعينيه الملتهبتين ببريق السعادة.

وتقابلت أصابعهما في لهفة وشوق في منتصف الطريق. . وحدق كل منهما في عيني الآخر وبدوا كأنهما غابا عمن حولهما. . وأنهما يبحران في جزيرة بعيدة نائية من الناس. . تجعلهما وحدهما.

وتقدما أخيراً صوب المقعدين المذهبين المخصصين لهما واللذين ارتصت خلفهما باقات وأكاليل الورود.

وعلت الزغاريد مرة أخرى فتعانقت أصابع «نيللي» و«علاء» في فرح. . وهمس يقول لها في نشوة: أنا لا أكاد أصدق عيني حتى هذه اللحظة. . وإننا نوشك أن نصبح خطيبين.

فهمست «نيللي» تجيبه: ولا أنا أيضاً. . أحس كأنني في حلم.

اتسعت عينا «علاء» بفرحة طاغية قائلاً: إنني في أحيان كثيرة أظن أنني أحلم بالفعل. . ولم أصدق أن هذا الشاب ابن عمك يأتيني عارضاً علي أن نتشارك في أي تجارة أختارها، هو بماله وأنا بجهدي. . فخيل الي كأنه ملاك من السماء منزه عن أغراض البشر. . وزاد إعجابي عندما شاهدته يصحبني معه الى والدك فيقنعه بزواجنا بالرغم من اعتراض والدك في بادئ الأمر.

قالت مرحة: إن «مرسي» بمثابة الأخ بالنسبة لي وقد عرض علي أن يمنحنا شقة نتزوج فيها لكي لا تطول فترة خطوبتنا، ولكني رفضت ذلك شاكرة.

فنظر إليها «علاء» في دهشة هاتفاً: كيف ترفضين عرضاً كهذا. . إنه كان يمكن أن يختصر لنا مشاق كثيرة.

فقالت تلومه: لن أقبل أن أعيش في شقة زوجية لا تكون أنت من بناها بكده وعمله.

فحدق «علاء» في عينيها لحظة ثم همس: أنت على حق.

ومست «نيللي» أصابعه في رجاء حار هاتفة: إن كل ما أرجوه منك أن تكون عند حسن ظن الجميع. . فلا تضيع هذه الفرصة التي منحها إياك «مرسي». . لأن في ضياعها ضياعي أيضاً منك وخسارتك لي للأبد.

فتشبث بأصابعها في لهفة قائلاً: لا تنطقي بذلك مرة أخرى. . فالموت أهون من افتراقنا وضياعك مني. . ولقد بدأت بالمال الذي أقرضه لي ابن عمك إجراءات تأسيس شركة تجارية، ولم أشأ أن أتقدم لوالدك طلباً ليدك مرة أخرى إلا بعد أن بدأت هذه الشركة نشاطها بالفعل. . وسأعمل ليل نهار دون كلل لتزداد أرباحها فأثبت لك أنني جدير بك حقاً. . وجدير بهذه الثقة التي وضعها في «مرسي».

وعادت أصابعهما تتلامس في لهفة. .

وأخرج «علاء» من جيبه علبة قطيفة يلمع فيها خاتم تتألق في

قمتـه حبات من الماس ووضعه حـول أصبعهـا ، قائلاً: ما رأيك في خاتم خطبتنا؟

فشهقت «نيللي» من شدة إعجابها بالخاتم الثمين . . وهتفت ذاهلة: إنه يساوي الآلاف . . من أين حصلت على ثمنه؟

أجـابهـا باسمـاً: إنه ربح أول عـمليـة قـمت بها في الـشركـة الجـديدة . . وقد أصـر «مـرسي» على أن يمنحني الربـح كامـلا هذه المرة لكي أتمكن من شراء خاتم خطوبة يليق بك .

استدارت عيناها رغماً عنها صوب «مرسي» . .

كان جالسـا في نهاية القاعة صامـتا يرنو إليها بعـينين تكتمان خليطاً من المشـاعـر المضطربة . . مـشـاعـر حـزن وفـرح . . ضحكات ودموع . .

وتقـابلت أعينهـما للحظـة طويلة . . كأنهـما في مناجـاة . . وكان في عيـني «نيللي» شكر عميق لا نهاية له . . ولم يـحتمل «مرسي» نظرة الشكر العميقة من العينين الصافيتين ، فتحرك من مكانه . . وغادر المكان سريعاً دون أن ينظر خلفه .

نكست «نيللي» رأسهـا في صمت وداخلها إحسـاس يعذبها بأنهـا حكمت بالشقـاء على إنسان لا حـيلة له في حبـها . . ولا حـيلة لها في حـبهـا لإنسـان آخر . . واسـتدارت لتـجد أصـابع

«علاء» ممسكة بدبلة ذهبية باسماً وهو يقول: ألن تضعي دبلة الخطوبة في أصبعي؟

فارتعشت أصابعها وهي تضع الدبلة في أصبعه، ومشهد عيني «مرسي» الغارقتين في أحزانهما وهو يغادر المكان ينغص عليها فرحتها ويهيج آلامها.

ولكن فرحتها غلبتها سريعا..

كانت واثقة أن «مرسي» ذلك الإنسان النبيل سيعثر على من تستحق قلبه وحبه.. ووقتها ستختفي كل أحزانه..

كانت تعرف آلام وقسوة الحب المشتعل من طرف وحيد..

ولكن لولا ذلك الحب.. حب «مرسي» لها.. ما أمكنها أن ترتبط بمن أحبت.. «علاء».. فأي قدر عجيب صار يتحكم في حياتها ومصيرها.

ومنحها ذلك الخاطر إحساسا بالتعاسة لا تدري له سببا.

وأغمضت عينيها ذلك المساء، ومزيج من المشاعر يعصف بها.

واستيقظت على صوت حوار بين أبيها و«علاء» الجالسين في الصالة.. وأبوها يقول له:

ـ اجتهد يا ولدي في شراء الشقة وتأثيثها . . فأنا لا أرغب في أن تطول الخطبة أكثر من بضعة أشهر . . ولتكن شقة صغيرة يمكنكما أن تبدلاها بعد ذلك .

فأجابه «علاء»: لا تقلق يا عمي . . فخلال أشهر سأكون قد تمكنت من تجهيز كل شيء . . فأنا واثق من أن تلك الشركة التي أقمتها مع «مرسي» ستتضاعف أرباحها في زمن قياسي .

وعندما خطت «نيللي» صوبه في فستان أنيق وتسريحة شعر بسيطة استقبلها باسماً . . ومد يده يصافحها هامسا: إنك تبدين كملكة .

فهمست تقول في خجل: ليس هناك أمير لمملكتي سواك .

فقبل كف يدها في نشوة هاتفاً: وأين ترغب ملكتي في الذهاب اليوم احتفالاً بمناسبة خطوبتنا؟

أجابته في سعادة: أي مكان نكون فيه معاً . . هو أجمل مكان في العالم .

وعندما جلسا في بهو أحد الفنادق الفاخرة يحتسيان مشروبا بارداً ، قال «علاء» ضاحكاً: إن «مرسي» أبن عمك رجل رائع حقاً ، منحني إجازة بضعة أيام لكي أقضيها معك في النزهة . .

بل والأكثر من ذلك إنه قرر مضاعفة رأسمال الشركة لكي تتضاعف الأرباح فيمكنني الزواج بك سريعاً . . فجعلني أتأكد من مدى إعزازه بك وحبه لك باعتباره ابن عمك . . وقد حاول إقناعي بإعطائنا شقته لنتزوج فيها ، ولكنني شرحت له وجهة نظرك في هذه المسألة .

فرمقته «نيللي» في صمت وشحب وجهها قليلا . . وهمست تقول في رجاء:

ـ لماذا لا تغير الموضوع؟

أجابها مستسلماً: كما تشائين .

وانقضى النهار سريعاً وهما يجوبان أماكن كثيرة كان أكثر ما يسعدهما فيها وجودهما معاً . . وعندما سارا عائدين الى منزل «نيللي» ، قال لها «علاء» في الطريق:

ـ والآن حان أوان المفاجأة التي ادخرتها الى نهاية اليوم .

تساءلت في لهفة: مفاجأة أي مفاجأة؟!

قال متخابثاً: ما رأيك في قضاء بضعة أيام في «الإسكندرية» معا؟

شحب وجهها وقالت معترضة: هذا مستحيل . . كيف يمكننا السفر معا قبل أن نتزوج؟

أجابها ضاحكاً: أنا لم أقصد أن نسافر وحدنا، بل نأخذ أسرتك معنا. . فنقضي جميعاً وقتاً رائعاً هناك.

أشرق وجهها وهتفت: سيكون ذلك شيئاً رائعاً. . فمنذ سنوات وأنا أتمنى قضاء بعض الوقت في «الإسكندرية».

رفع «علاء» كفيه لأعلى بحركة تمثيلية قائلاً: حسنا. . ها هي أمنيتك تتحقق أخيراً على يدي.

وأبرز من جيبه بضعة مفاتيح لوّح بها في وجه «نيللي» قائلا: وها هي مفاتيح الشقة التي سنقضي فيها تلك الأيام في «الإسكندرية».

تأملت «نيللي» المفاتيح الفضية في دهشة وسألت «علاء»: ومن أين حصلت على هذه المفاتيح؟

أجابها باسماً في انتصار: إنها شقة ابن عمك في «الإسكندرية». . فهي تطل على البحر ولها شرفة رائعة كما أخبرني «مرسي» كما أنها في قلب «الإسكندرية». .

وبتر عبارته صوت «نيللي» المتألم في همس: كفى. . كفى. .

توقف «علاء» وهو يرمقها في دهشة. . كانت تبدو متألمة بشدة وقد شحب وجهها وبدت في العينين معاناة قاسية.

وغمغم «علاء» في دهشة: «نيللي» . . ماذا بك؟

فأجابته في ألم: إنني أعاني من صداع مؤلم يكاد يشق رأسي نصفين .

وهمست في رجاء: أرجوك . . خذني الى المنزل بسرعة .

فأشار «علاء» الى أول «تاكسي» مر بهما . .

وعندما خطت «نيللي» الى حجرتها وأغلقت بابها على نفسها . . ارتمت فوق فراشها وانخرطت في بكاء حار أليم .

نبوءة الغجرية

وعندما عرض «علاء» فكرة السفر الى «الاسكندرية» على والد «نيللي» تحمس لها بشدة . . لأنه لم يحصل على إجازة منذ وقت طويل . . وعندما حاولت «نيللي» الاعتراض بدت كلماتها الرافضة دون معنى وبلا تبرير .

وفي الصباح التالي كانوا يستقلون القطار السريع الى عاصمة الثغر . .

وكانت شقة «مرسي» فاخرة رائعة وأثاثها أنيقاً بسيطاً . . وقال «علاء» ضاحكاً:

ـ إن «مرسي» يملك ذوقاً لا بأس به بالرغم من مظهره وخشونته .

فرمقته «نيللي» في صمت دون أن ترد . . وهي تجاهد لتكتم غضبها من أشياء كثيرة . . وعلى الشاطئ تبدد غضبها وعاد

إحساسها بالسعادة لوجود «علاء» بقربها وأنهما يوشكان أن يرتبطا. كان «علاء» بارعاً في السباحة والغوص براعة سمكة عاشت في البحر طوال عمرها. . ويقضي أغلب يومه في قلب الماء أو التمدد على الشاطئ بقامته المديدة وجسده المتناسق.

وتنبهت «نيللي» الى نظرات الإعجاب التي حاصرت خطيبها من بعض الفتيات الجالسات على الشاطئ، و«علاء» يسير أمامهن متباهياً دون أن يلقي عليهن نظرة اهتمام واحدة. . ولكن نظرات الفتيات الى «علاء» جعلت «نيللي» تشعر بالغيرة، وقالت لـ «علاء» في ضيق:

ـ دعنا نعود الى الشقة.

فأجابها متخابثا: هل ضايقتك نظرات بعض الفتيات إلي؟

ولكنها أجابته بنظرة متهجمة فواصل ضاحكاً: ماذا أفعل إذن في جسدي الرياضي ووسامتي الزائدة. . فهما لا يمكن أن يذوبا في مياه البحر. . وعليك أن تعتادي على ذلك ولا تغضبي.

تطلعت اليه «نيللي» في دهشة. . كانت المرة الأولى التي يحدثها فيها بمثل تلك اللامبالاة. . وتفصح كلماته عن قدر من الغرور الخفي.

ولاحظ «علاء» نظراتها فقال في رقة: إن أي فتاة أخرى لا تستحق أن تغاري منها.. فأنت في نظري أجمل فتاة في العالم.

ومد يده يتحسس خصلات شعرها فأحست بخدر للمسته.. كان يبدو ساحراً فاتناً.. وكان على حق في أن جاذبيته ووسامته أمر لا حيلة له فيها.. وعليها ألا تغضب من نظرات الأخريات له.. ما دام هو لا يبادلهن نفس الإعجاب.

وهمست تقول له في خجل: إنني آسفة لأنني تحدثت بمثل هذه الطريقة. وأضافت باسمة: أنا جائعة الآن فماذا نأكل؟

أجابها ضاحكاً ما رأيك في دعوتك على الغداء في أشهر مطعم للأسماك في «الإسكندرية» كلها؟

تحمست هاتفة: فكرة رائعة.. سأخبر الجميع ليستعدوا..

ولكنه قاطعها: إن الدعوة مقصورة عليك وحدك..

أصابها خجل وهمست: ولكن..

ولكنه بتر معارضتها قائلا: لقد مللت من مصاحبة الآخرين رغما عني وأريد أن نجلس وحدنا. سأغير ملابسي وأعود إليك حالاً.

وعاد بعد دقائق قضتها نهبا للأفكار.. واستقلا «تاكسي»

حملهما الى «سيدي جابر» . . وفي مطعم «إمفتريون» القابع على شاطئ البحر جلسا يتناولان وجبة من السمك المشوي والجمبري . . وهما يراقبان أمواج البحر المتعاقبة في حركة هادئة بطيئة ، وهي تلقي برذاذها على الشاطئ فتكتسح بعض الرمال ، قبل أن تعود المياه مهزومة مدحورة الى قلب البحر مرة أخرى . . والأطفال يلهون فوق الرمال المبتلة وهم يصنعون منها قلاعاً ومنازل وعربات وطائرات .

وهمست «نيللي» تقول وهي تراقب الأطفال: إنني أتمنى أن أنجب بعد الزواج دستة أطفال ، فإنني أحبهم حباً جماً .

فقال معترضاً: لا . . يكفي طفل واحد حتى لا يشغلنا عن متع الحياة . . فكرة الأطفال تولد لأصحابها الهم والمسؤولية .

وأضاف وهو يلتهم قطعة سمكة كبيرة: وحتى هذا الطفل الوحيد لن ننجبه إلا بعد سنوات ، وبعد أن أكون قد أمنت مستقبلي جيداً .

فنظرت «نيللي» حزينة وقالت: إنك تتحدث كما لو كان المستقبل يخصك وحدك . . وكأنني لست شريكة لك فيه لتأخذ رأيي أيضاً .

فابتسم ابتسامة رائعة كشفت عن أسنانه السليمة الناصعة

قـائلاً: إنك أنت المسـتقـبل يا حـبيـبتي. . فكـيف لا تكونين شريكة فيه؟

وأنهـيا الطعـام وكان الشـاطئ القريب، من الجـمال بحيث اجتـذبهما للسـير فوق رمـاله معرضين أقـدامهمـا للبلل. . وقال «عـلاء» وهو يراقب قرص الشـمس الذي أوشك على الغـروب خلف الأفق الدامـي: إن «مـرسي» إنسـان رائع حـقـاً. . فـقـد منحنا فرصة ذهبية لقضاء بضعة أيام لا تنسى معا.

فالتفتت «نيللي» صوبه وحـدقت فيه لحظة قبل أن تسأله: ألم يخطر ببـالك أبداً أن تـسـأل نفـسك، لماذا يفـعل «مـرسي» كل ذلك معنا؟

تطلع إليها «علاء» مدهوشاً من السؤال. . وهز كتفيه قائلاً: إنه يبغي سعادتك لأنك ابنة عمه طبعاً وما يسعدك يسعده.

فشحب وجه «نيللي» ولم ترد. . واقـتربت منها امرأة تحمل سلة من الخـوص خلف ظـهـرها وقـد ارتدت عـدداً من العـقـود الملونة وبدا واضـحاً أنهـا من الغجـر الذين يمتهنون قـراءة الطالع للرواد على الشاطئ.

وقـال «علاء» ضـاحكاً: مـا رأيك في أن تقـرأ هذه الغجـرية طالعنا؟

فقالت معترضة: إن قراءة الطالع عمل من أعمال الاحتيال والخداع، فلا أحد يعرف المستقبل غير الله.

هز «علاء» كتفيه في لامبالاة مجيباً: ولكننا لن نخسر شيئاً. . وليس الأمر أكثر من تضييع للوقت.

وأشار الى الغجرية حاملة السلة قائلاً: اقرئي لنا الطالع.

فالتقطت المرأة بعض الأصداف الكبيرة من سلتها، واختارت إحداها ومدتها الى «نيللي» قائلة:

ـ وشوشي هذه الصدفة بسؤالك الذي تودين معرفة إجابته.

فأمسكت «نيللي» الصدفة مترددة ولكن نظرات «علاء» المشجعة دفعتها لأن تهمس بشيء في الصدفة ثم أعادتها الى الغجرية التي وضعت فوهة الصدفة فوق أذنها ثم قطبت حاجبيها وأعادت الصدفة الى مكانها دون أن تنطق بشيء.

وسألتها «نيللي» في لهفة: ماذا حدث؟

فأجابتها الغجرية: إن أمنيتك لن تتحقق يا ابنتي.

فشحب وجه «نيللي» وأصابها دوار. . على حين ابتعدت الغجرية عن المكان. . وهتف «علاء» في «نيللي»: ماذا حدث. . ما الذي تمنيته في الصدفة وأخبرتك الغجرية أنه لن يتحقق؟

فعضت «نيللي» على شفتيها في ألم هامسة: لقد سألت الصدفة إن كنا سنتزوج أم لا؟

شحب وجه «علاء» لحظة ثم هتف في حدة وغضب: هذه الغجرية المحتالة الكاذبة. . إنني لو أمسكت بها الآن لبعثرت بضاعتها ولقنتها درساً قاسياً لكي تكف عن الخداع والكذب من أجل الحصول على المال.

ارتعدت شفتا «نيللي» وهمست: ولكنها. . ولكنها لم تطلب منا أي مال.

ضاقت عينا «علاء» وارتبك لحظة ثم قال: ولكنها ليست أكثر من محتالة. . «كذب المنجمون ولو صدقوا». . والآن هيا نعود الى الباقين فقد تأخرنا عليهم.

وسارا مبتعدين عن الشاطئ غارقين في الصمت. . وكان ثمة إحساس خفي في قلب «نيللي» يقبض على مشاعرها. . ويعتصر فرحتها.

هدية عيد الميلاد

دقت قطرات المطر حافة النافذة بعنف . .

ظلت «نيللي» مكانها تراقب قطرات المطر الغزيرة المنسكبة فوق الزجاج . . وقد بدت النافذة كعين كبيرة غارقة في الدموع والأحزان . . وخلفها تلبدت السماء بغيوم كثيفة . . وثمة شتاء قاس قد أطبق بأصابعه الباردة فوق سماء «القاهرة» . .

ليلة رأس السنة . . ومن قلب الأمطار عبر النافذة المغلقة شاهدت عشرات الأشخاص الذين لم يعجزهم المطر عن الخروج والاحتفال بقدوم عام جديد . . وإطلاق الأعيرة النارية في الفضاء .

دقت الساعة الحادية عشرة مساء . . و«علاء» لم يأت بعد . .

لم تكن هناك سنة قديمة ستقطف آخر أوراقها تلك الليلة . . ليولد عام جديد . . بل كان نفس اليوم تاريخ ميلادها . .

وهو . . «علاء» . . وعدها أن يأتي ليحتفلا معا بعيد ميلادها . . فأجلت الاحتفال حتى نام أخواتها الصغار بحثا عن الدفء وبقيت وهي بجوار النافذة تنتظر قدومه وهو لا يأتي .

شهور كثيرة مضت منذ خطبتها . . وهي تشعر بكل يوم يمر بها . . أنه تغير قليلاً عن اليوم الذي سبقه . . وتكتشف في طباعه وأخلاقه أشياء كثيرة كانت خافية عنها . صارا لا يلتقيان كثيراً . . هو دائماً مشغول بعمله الذي اتسع وأرباحه المتزايدة . . دائماً هو أنيق وسيم لأن مظهره كما أخبرها جزء من عمله . .

سكرتيرته الرائعة الجمال مرتبها يزيد عن خمسمائة جنيه . . لأنها كما قال جزء من مظهر الشركة وعنوانها . . وهناك سكرتيرتان أخريان للأعمال التنفيذية .

وكلهن لا يتحركن إلا باشارته وحسب أوامره . . كان لديه دائما تبريرات كثيرة ، واعتادت هي أن تنصت وتسمع وتبرر وتغفر . .

ولكن إحساسها أنها لم تعد في بؤرة اهتمامه صار

يعذبها. . وتضاءلت حتى رؤيتها له بعد أن نمت وتضخمت مشاريعه وأعماله. . لم يكن هناك شك في أنه صار رجل أعمال ناجحاً وينتظره مستقبل مرموق بشهادة الجميع وأولهم «مرسي». . ولكن الذي لا شك فيه أن ذلك كان على حساب علاقتهما. . وحبهما.

أشياء كثيرة صارت على حساب علاقتهما. . وشغلته عنها أشياء أخرى كثيرة. . وامتدت أصابعها الى الهاتف لتدير القرص للمرة العاشرة. . ولكن جرس الهاتف على الناحية الأخرى في مكتبه ظل يدق دون رد. .

ودق جرس الباب. . فانتفضت من اللهفة والفرحة. . وأعادت السماعة مكانها هاتفة في لوم لنفسها: لقد ظلمته. . وها هو قد جاء أخيراً ليتمنى لي عاماً جديداً سعيداً. . وليقضي معي وأسرتي وقتاً طيباً.

وفتحت الباب متلهفة ثم شهقت بسبب المفاجأة غير المتوقعة. .

لم يكن هو الطارق. . بل «مرسي»!

ووقف قبالها لحظة ينتفض من البرد والمطر الذي أغرقه فبلله تماماً بالرغم من معطفه الثقيل. . وأفاقت لنفسها هاتفة في

إشفاق: «مرسي» . . هل كنت تسير تحت الأمطار؟

فخطا للداخل قائلا وهو يرتجف من البرد: لقد تعطلت سيارتي في منتصف الطريق . . وفشلت محاولاتي في العثور على «تاكسي» يأتي بي هنا فغرقت تماما وأنا أسير تحت المطر كل هذه المسافة.

تأملته «نيللي» في دهشة وعجب، لم تره منذ ما يزيد عن الشهرين . . سألته رغما عنها: هل جئت في شيء مهم لم يكن لا يحتمل التأجيل الى الغد، بدلا من غرقك تحت المطر على تلك الصورة التي قد تصيبك بالمرض؟

فابتسم ابتسامة شاحبة وأجابها في ارتباك: إن المناسبة التي جئتك لأجلها لا تحتمل التأجيل الى الغد والا فقدت معناها.

وأخرج من تحت معطفه علبة مغطاة بورق مصقول وقد ربطت حوافها بشريط بلون لامع . . وهمس في ارتباك أشد: كل عام وأنت بخير . . وعقبال مائة سنة، ، فقد انتقيت هدية عيد ميلادك . . وأخشى ألا يعجبك ذوقي.

مدت «نيللي» يدها كالمسحورة نحو الهدية . . وارتجفت شفتاها لحظة قبل أن تسأله في صوت مبحوح: كيف عرفت أن عيد ميلادي اليوم؟

أجابها في عتاب جميل: هل نسيت أننا أولاد عمومة . .
فلطالما احتفلنا بعيد ميلادك ونحن صغار وخرجنا نلهو تحت الأمطار، نتمنى عاما سعيدا جميلا . . وأنا أشتري لك بكل مصروفي الحلوى التي تحبينها؟

ووشت عيناه الواسعتان بفرحة قديمة لا تزال تسكن العينين . . وسرعان ما انطفأ بريق الفرحة كأنما أفاق صاحبها الى الواقع المختلف . .

وغمغم «مرسي»: سأذهب الآن فقد تأخر الوقت .

ولكنها تشبثت بذراعه المبتلة وهي تغالب مشاعرها . .
وارتعدت أصابعها قبل أن تجيبه في ارتباك: لا يصح أن تذهب قبل أن يأتي «علاء» فنحتفل معاً بعيد ميلادي .

أجابها في ألم: لا أظن أنني قادر على البقاء . . هذا بالاضافة الى أن «علاء» قد يتأخر .

سألته في دهشة: ماذا تقصد بذلك؟

هرب ببصره مغمغماً: أبداً . . لا شيء . .

وفي اعتذار واصل: أنا مضطر للانسحاب فإنني مضطر للعودة للمنزل لأذاكر قليلا قبل نومي . . فلم يعد لدي وقت فراغ كثير .

سألته بدهشة: تذاكر ماذا؟

أشرق وجهه بأمل بعيد وقال: لقد تقدمت للحصول على الثانوية العامة هذا العام . . وأطمع بعدها لدخول كلية الطب فأحقق حلما قديما .

انعقد لسانها وتأملته بعينين واسعتين . . تنبهت للمرة الأولى الى أنه فقد الكثير من وزنه وصار رشيقاً ، وحتى شاربه هذبه وأزال صبغة السجائر من فوقه . . ولاحظ «مرسي» نظراتها المندهشة فقال مرتبكاً: لقد اتبعت «ريجيما» قاسيا وتمرينات رياضية لإزالة الوزن الزائد . . وحتى السجائر امتنعت عن تدخينها .

ونكس بصره لا يجرؤ على مواجهتها ويخشى من سؤال ما قد يعجز عن الرد عنه . . غمغم في صوت مختنق منسحباً: تصبحين على خير .

وانفلت هابطاً السلم دون أن ينتظر منها رداً . .

ووقفت مكانها لحظة تحدق في الفراغ وتساءلت ذاهلة إن كان ما حدث حقيقة ، وان كان «مرسي» ماثلاً أمامها بالفعل ، أم أنه كان مجرد وهم؟

ولكن هديته التي استقرت بين أصابعها أكدت مجيئه

وانصرافه . . كأن من شاهدته منذ لحظات شخص آخر مختلف تماما . . شخص يعيش بأمل جديد . . كأنه ولد مرة أخرى ليعيش حياة مختلفة . . وتساءلت في ذهول . . هل كانت هي السبب في كل ذلك التغير الحادث له؟

وأغلقت الباب يبطء . . وعادت الى حجرتها . . والى النافذة التي توقف هطول الأمطار فوقها . . كأنما سكبت السماء كل دموع أحزانها وجفت مآقيها .

وانتصف الليل تماما . . ولم يكن هناك أمل في مجيء «علاء» . . ليتمنى لها عاماً جديداً سعيدا . . وليكونا معا لحظة ميلاد عام جديد .

وسقطت دمعة ملتهبة فوق خدها . . كانت تحمل خليطا من مشاعر شتى . .

وتحركت فأطفأت النور . . وجلست فوق أقرب مقعد في قلب الظلام وعيناها مصوبتان نحو النافذة البعيدة التي راحت ترى فوقها مشاهد كثيرة متعاقبة مرت عليها شهور وأسابيع وأيام وبدا كأنها تراجع أشياء كثيرة في حياتها . .

وكأنها كانت تولد من جديد أيضاً . .

وتركت لدموعها العنان . . لتغسل أحزانها في انتظار من لم يجئ .

الطاووس

وتنبهت على صوت دقات جرس الباب . . فأفاقت من نومها وفتحت عينيها . . وقد غمر ضوء الشمس الحجرة وتعلق بصرها بساعة الحائط . . تجاوزت العاشرة صباحاً بدقائق . . وسمعت صوت والدتها ترحب بـ «علاء» في الصالة . . فارتسمت فوق شفتيها ابتسامة باهتة . . وخرجت إليه بعد أن اغتسلت وغيرت ملابسها . .

وعندما شاهدها هب واقفاً يحتضن هديته بين ذراعيه هاتفاً بابتسامة عريضة:

ـ كل سنة وأنت طيبة يا عزيزتي . . وعقبال مائة عام .

تأملته «نيللي» لحظة في صمت . . كان أكثر وسامة وجاذبية عن أي مرة أخرى شاهدته فيها . . وكانت ملابسه أنيقة فاخرة ككل مرة لم تبللها نقطة ماء واحدة . . وتجاهلت

يده الممدودة تجاهها وجلست قبالته وهي تجيبه في صوت بارد: تأخرت تهنئتك كثيرا يا «علاء». . فقد انتظرتك طوال الليل دون أن تجيء.

جلس معتذرا وقال: لقد انشغلت في عمل طوال الليل لم أفرغ منه قبل الفجر. . فاستحال علي المجيء في هذا الوقت المتأخر.

قالت في أسى: أنت تكذب أيضاً. . فقد اتصلت بمكتبك وظل جرس الهاتف يدق دون مجيب منذ العاشرة مساء.

انتفض مكانه غاضباً وقال: أنا لا أكذب. . ولا أحب أن تتهميني بذلك أبداً. راقبته «نيللي» في صمت. . كان مثل طاووس صغير انتفض لكرامته. . وقال وهو يستعيد هدوءه: لقد كانت سهرة عمل بالفعل، ولكنني لم أقضها في المكتب بل مع مجموعة من الأجانب الذين سيشاركون في أحد مشاريعي. . وقد دعوتهم الى حفل صغير. . وتأخر بنا الوقت.

واصلت «نيللي» في جمود: كنت أظن أنني في حياتك أهم من أشياء كثيرة.

أجابها «علاء» في لهفة: أنت لا تعرفين كم سأكسب من

هذه الصفقة معهم . . ليس أقل من مائة ألف جنيه .

سألته بنفس الأسى الحزين: ومن شاركتهم أعمالم في الشهور الماضية . . كم كسبت منهم؟

شحب وجهه وقال: ماذا تقصدين؟

عاودت حديثها في خفوت: أنت لم ترد على سؤالي .

ضاقت عيناه وأجابها: لقد كسبت الكثير بالفعل وتوسعت أعمال الشركة كثيراً .

واجهته في حزن قائلة: هذا هو أول ما فكرت فيه . . أن تتوسع في أعمال الشركة وتصير لها فروع ونشاطات متعددة . . وأن تكون لك سكرتيرة واثنتان وثلاث . . وسيارة واثنتان .

قال «علاء» محتدا: أنا أفعل ذلك لأجلك . . فكل هذا النجاح سيعود لك في النهاية .

هزت «نيللي» رأسها في عدم اقتناع قائلة: لا . . بل تفعله لأجل نفسك وحدك . . لو كان هناك شيء تفعله لأجلي لاشتريت شقة نتزوج فيها بأسرع ما يمكننا . . كما اتفقنا منذ شهور مضت .

ضاقت عيناه أكثر وغمغم متهربا: إنني أخطط بالفعل لشراء

تلك الشقة، ولكن شراءها الآن سيكلفني الكثير وسيعطل بعض مشاريعي. . ولذلك أجلت هذه الخطوة بضعة أشهر أخرى.

نهضت واقفة وهي تقول: أرأيت. . لقد صارت في حياتك أشياء كثيرة أهم مني.

نهض خلفها في حدة قائلا: إنني في منافسة قوية في السوق ويجب أن. .

قاطعته في مرارة: إنك قبل شهور لم تكن تملك شيئا. . لا مال ولا شركة ولا سيارة ولا سكرتيرة وكان كل ما ترجوه أن نتزوج وكنت تعتبر ذلك منتهى آمالك في الحياة. ولكن الآن تغيرت أشياء كثيرة كما ترى.

احتقن وجهه. . وغمغم في ارتباك: لقد تغيرت بعض الظروف كما تعرفين.

كست عينيها تعابير حزينة وهي تجيب: نعم. . تبدلت أولوية الاهتمامات بالنسبة لك. . وصرت أنا في مؤخرتها.

اقترب «علاء» منها. . أمسك بأصابعها بين راحتيه وهتف يقول في ضراعة: «نيللي». . لماذا تتحدثين معي بمثل هذه القسوة. . أنت تعرفين كم أحبك؟

أجابته في أسى عميق: ربما تكون قد أحببتني ذات يوم لأنني كنت الفتاة الوحيدة التي امتنعت عنك فدفعتك كرامتك الجريحة ورجولتك المهانة الى الحصول عليها بأي ثمن حتى لو كان الزواج. . ولا شك أن حرمانك مني قد جعل قلبك يهفو ناحيتي ويمتلئ ببعض الحب. . هذا الحب الذي ربما تكون قد توهمته لتقنعني به.

أو ربما كان حقيقة فلم أعد أدري ما هي الحقيقة. . ولعل هذا الحب لا يزال باقيا جزء منه في قلبك. . ولكن هناك من تحبه أكثر مني ألف مرة.

- من؟

- نفسك. . وذاتك. . وخيلاءك. . وذلك الطاووس بداخلك.

صدمته عبارتها. . وغمغم دون وعي: ماذا تقصدين؟

تهدج صوتها بالانفعال: إن المال يعري النفوس ويكشف أشياء كثيرة. . وأنت بلا مال كنت حبيباً رائعاً ومثاليا ليس لديه غير العواطف الخالصة. . ولكن عندما جاء المال كشف القناع وبيّن حبك الحقيقي ولمن تنتمي أكثر. . صرت لا تفكر في غير مركزك كرجل أعمال. وشركتك وحفلاتك

وسكرتيراتك وسمعتك في السوق . . صرت أكثر اهتماما بأناقتك ووسامتك . . وظهر الطاووس الحقيقي بداخلك . . ولم يعد يهمك أن تتعجل الارتباط بي كما وعدتني ، وصرت حتى لا ترغب في إنجاب أطفال بعد الزواج حتى لا يعطلوا مشاريعك . . وعدت مرة أخرى الى شخصية الـ «دون جوان» ، ولكن في صورة رجل أعمال يغزو الآفاق ويصرع منافسيه بسلاح المال . . صار اهتمامك الأول ينصب على المال وكيفية كسبه بأي وسيلة بدلا من السعي وراء الفتيات . . فقط تبدلت الاهتمامات وإن لم تتبدل شخصيتك أو يغير الطاووس بداخلك من اهتمامه بذاته وإعجابه بنفسه أولاً ، وصار لديك استعداد لأن تستفيد من كل من هم حولك دون أن تتوقف لحظة واحدة لتحاسب نفسك إن كنت ستخسر بهذا الكسب أكثر مما كسبت .

احتقن وجه «علاء» أكثر وهتف في غضب: انتبهي الى كلماتك يا «نيللي» . لن أقبل منك كلمة زائدة أكثر مما قلت .

ولكنها بدت كأنما لم تسمع ما قاله . . واقتربت منه أكثر وواجهته قائلة: لقد سألتك ذات مرة سؤالا تهربت من الإجابة عنه .

والآن أدرك عن يقين أنك كنت تعرف الإجابة وقتها دون أن تؤثر الحقيقة التي تعرفها في مشاعرك.

تعقد حاجباه في شك قائلاً: أي سؤال هذا؟

أدركت «نيللي» أخيراً أنه لا مفر من المواجهة التي أجلتها كثيراً.. كانت تتعذب وأرادت أن تقسو عليه مثلما قسا عليها.. وغمغمت: سألتك ذات يوم إن كنت تعرف السبب الذي جعل «مرسي» يضع قدميك فوق بداية الطريق ويمنحك من المال والخبرة ما جعلك رجل أعمال ناجحاً.. وتهربت من الإجابة لحظتها.

واجهها في قسوة مغمغماً: أعرف أنه يحبك وأنه فعل هذا لإسعادك.. ولكن هذه ليست مشكلتي ولا تهمني مشاعره نحوك.

استنفد ما قاله صبرها فصرخت فيه: بل هذه هي مشكلتي الأولى.. لأنك رأيت في هذا الحب الوسيلة المثلى لابتزازه بقدر ما تستطيع فصرت شريكا له بلا مال.. وحصلت على الأرباح مقدماً.. وكنت على استعداد لأن تتزوج في شقة يهديها لك.. كل ذلك وأنت تعرف أنه يفعل ذلك وهو يموت كل لحظة ألف مرة لأنه يحبني بجنون.. وبرغم ذلك لم

تتوقف لحظة لترفض هباته وعطاياه في رجولة من يخشى على كرامته وتؤلمه رجولته لأن كل ما تملكه تحصل عليه هبة وعطايا من رجل آخر كان منافسا لك يوماً ما على قلبي ومشاعري، ولكن لأن كل أفكارك منحصرة في ذاتك، فإنك لم تر من الأمر كله غير الفائدة العائدة عليك حتى وإن أهدرت كرامتك أمامها.

هب «علاء» واقفا بعنف هاتفا: لقد تجاوزت حدودك كثيراً.

واجهته في مرارة: هل خدشت كبرياء الطاووس عندما كشفت له زيف بريقه الخادع وحقيقة تصرفاته؟

وأضافت في حزن مرير: هل تذكر تلك الغجرية العجوز التي قرأت طالعنا وأخبرتني أننا لن نرتبط أبداً.. وسخفت أنت من كلامها.. وهي ربما لا تكون قد قرأت الطالع حقاً، ولكنها استشفت من ملامحك وغرورك أنك لن تستمر في هذا الطريق أبداً، طريق الارتباط بي.. ولعلها قرأت في عينيك كيف يختال هذا الطاووس بداخلك على من حوله.. وأنك لا تعشق غير إنسان وحيد هو نفسك.. وأنك في سبيله على استعداد لأن تنافق وتكذب وتبتز وتدوس حتى على

كـرامتك . . فـقـد قرأت حـقـيقـتك في عينيك قبل أن أكـشـفهـا بنفسي . . وهي كانت متأكدة دون شك أن السؤال الوحيد الذي كان يحيرني ويخيفني هو إن كانت قصة حبنا سيتوجها الزواج أم لا . . لأنهـا استشـعرت قلـقي وخوفي من قـبل أن أستـشعر به أنا نفسي . . فهذه هي الحقيقة ولم يعد هناك مفر من إعلانها .

زمـجـر «عـلاء» في غـضب: هـل تريدين أن تسـمـعي مني حقيقـتك أيضاً . . أنت لست سوى فتاة تافهـة ، والآن تقيمين لي حسـاباً عسيـراً لأنني لم آتك أمس متمنيـاً عيد مـيلاد سعيداً لك ، فرحت تخترعين لي التـهم والأكاذيب . فأي غرور صار يتـملكك . . وأنت تعرفين أننـي أستطيع الزواج بمن هي أجـمل وأغنى منك ألف مـرة وبعـد أن صـار لدي مـال كـثيـر ولكنني فضلتك عليهن بسبب مشاعر بلهاء حمقاء؟

تهـدج صـوتهـا في انفـعـال بالغ وشـحب وجـهـهـا بشـدة وهتـفت: ها هو الـطاووس بداخلك يتـحـدث كـاشـفـاً عن الحقيقة . . وأنا التي كـدت أموت يأساً وحزناً ذات لحظة عندما خشيت أن يباعـد القدر بيننـا . . هأنذا اكـتـشف مقـدار حبك الحقيقي لي وصرت تعايرني بمالك . . ناسياً أنه لولا حبي لك ما كان لك هذا المال أبداً!

اربد وجه «علاء» في غضب عنيف أضاع بهـجة وسامته . .
وزمجر في غضب حاد:

ـ أنت اخترت طريقك . . وأنا سأختار طريقي . . وبعد الآن لن يجتمع طريقنا أبداً .

خلعت «نيللي» من أصبعها خاتم خطوبته الماسي ووضعته فوق المائدة أمامها . .

فتردد «علاء» لحظة قبل أن يدسه في جيبه مغمغما في حنق: سوف أجعلك تندمين ألف مرة .

واتجه الى الباب في عنف فاستوقفته «نيللي» قائلة: انتظر . . هناك شيء نسيت أن تأخذه معك .

وأشارت الى علبة هديته مواصلة في مرارة: خذها معك . . فمن يدريني بمال من قد اشتريتها لي .

وعندما صفق «علاء» الباب خلفه في عنف . . استدارت «نيللي» وهي تكبت دموعها فلمحت والدها واقفاً يحدق صوبها في صمت وعيناه تشيان بحزن عميق .

الحياة تبدأ من جديد

أطرق «مرسي» برأسه تجاه الأرض بقلب جريح ومشاعر ممزقة. . وقال الأب في مرارة: إن هذا هو السبب الذي جعلني أرفض هذا الشاب عندما جاء لأول مرة طالباً يد «نيللي». . فقد شاهدت فيه طاووساً جاء في خيلاء كاذبة طالباً يد ابنتي ولكنني أمام إصرارها بعد ذلك ومساعدتك له وافقت على ارتباطهما متمنيا أن تغيره الأيام ولكن الأيام لم تكشف إلا عن المزيد من سوءه.

همس «مرسي» في ألم: و«نيللي». . كيف حالها؟

قالت الأم وهي تمسح دمعة من مقلتيها: إنها منذ واجهت «علاء» منذ يومين وقد أغلقت بابها على نفسها رافضة حتى الطعام والشراب. . ولم تسمح لأي إنسان بدخول حجرتها أو حتى مواساتها.

تطلع «مـرسي» صـوب الأب في رجـاء . . وهـمس: هل تسمح لي يا عمي بالمحاولة معها . . فربما استطعت إقناعها بأن ما حدث يمكن إصلاحه . . وأنه ليس نهاية العالم .

وأومأ الأب برأسه موافقاً . . وتحرك «مرسي» تجاه حـجرة «نيللي» . . وطرق بابهـا بأصابع متـرددة . . ولكن لم يجبه غـير الصــمت . . وعــاود الطـرق هامــسـاً فـي ألم: «نيللي» . . أرجوك . . إنني أرغب في التحدث معك .

مرت لحظة قبل أن ينفتح الباب لأول مرة منذ يومين . .

ودق قلب «مـرسي» في عنـف عندمـا وقـع بصـره عـلى ابنة عمه . . كانت شاحبـة الوجه وقد غارت عيناها وذبلت نظراتها وهزل بدنها فصارت كأنها شبح . . ووقفت تحدق فيه ومرارة العالم كله قد تجمعت في مقلتيها .

فـوجئ «مرسي» بمنظرها وهتـف في انزعاج: «نيللي» . . مـا هذا الذي تفعلينه . . إنك تقتلين نفسك .

غمغمت بصوت كأنه خارج من بئر: ليتني أموت فأستريح .

أدمتـه لهجتهـا والحزن المتفجـر من أعماقهـا فهتف فيـها: إن الفـرصـة لم تضع بعـد . . ولا يزال بإمكاننا إصـلاحـها وإعـادة الأمور الى مجاريها .

ونكس بصره في حزن نبيل مضيفاً: ما دمت تحبينه الى هذا الحد . . ونادمة على خسارتك له .

وبدا أنه يغالب تردده قبل أن يهمس: إن «علاء» حزين أيضاً على ما حدث . . وقد جاء الي معتذرا وطلب أن أكون رسولاً للإصلاح فيما بينكما ، وأن تنسيا كل ما قلتماه في لحظة غضب وتبدأا من جديد .

شردت نظرات «نيللي» وهمست مجيبة: أنا لست نادمة على ما جرى بيني و«علاء» . . بل لعل هذا هو الشيء الوحيد الصحيح الذي كان يجب علي أن أفعله . . مهما كانت الآلام . .

همس «مرسي» في صوت خافت: ولكنك تحبينه .

واصلت «نيللي» بنفس الهمس الشارد: لقد أمات الحب في قلبي . . فقد نما وترعرع ذات يوم . . ولكن شمس الجفاء والأنانية أذبلته ويبست أوراقه فاستحال الى هشيم .

ـ ولكني أراك حزينة على فقدانه حتى توشكي على الموت .

ـ أنا حزينة حقاً . . ولكن على مشاعري التي منحتها لإنسان لم يكن يستحقها .

فضاقت عيناها في ألم وهتفت: لقد كنت أنت أقرب إنسان

إليه يا «مرسي». . فلماذا أخفيت عني حقيقته. . لماذا لم تخبرني أنه ليس غير إنسان وصولي وانتهازي لا تدور حياته في غير محور وحيد هو ذاته.

احتقنت عينا «مرسي» وتهدج صوته وهو يجيبها: خشيت إن أخبرتك يوماً ألا تصدقيني وتتهميني بأنني أحاول الإيقاع بينكما لأفوز بك.

ـ أنا أعلم يقينا أنك صادق في كل ما تقوله. . وما كنت لأشك في ما ستقوله أبداً.

ـ صدقيني كنت سترفضين أي كلمة أقولها في حق «علاء». . فالحب دائماً يعمي البصيرة.

غمغمت في أسى: أنت على حق. . فقد أعمى حبي له بصيرتي فلم أتنبه للحقيقة إلا متأخراً.

وتطلعت الى «مرسي» في حنو. . كأنها تراه للمرة الأولى في حياتها. . كأنها تكتشف أشياء كثيرة فوق صفحة وجهه الطيب كانت خافية عنها. . وهمست تقول له: بقدر ما كانت التجربة أليمة ودامية لي، بقدر ما كشفت لي عن عمق نبلك وأصالتك.

هرب «مرسي» ببصره من أمامها هامساً: أنا لم أفعل إلا ما

ظننت أنه سيحقق سعادتك . . فمنحت كل ما أملك عن طيب خاطر حتى للإنسان الذي أوشك أن يحرمني منك .

عادت «نيللي» تتأمل ملامح ابن عمها في شغف هامسة:

ـ في أحيان كثيرة تغيب عنا أسباب السعادة الحقيقية وتعمينا عنها أشياء براقة خاطفة للعين . . ولكنها لا تستقر في القلب أبداً . . فالسعادة الحقيقية في العطاء وليس في الأخذ .

ـ أنا كنت مستعداً أن أدفع عمري كله . . ولا أرى الدموع في عينيك أبداً .

ـ ولكن ها هي الدموع تسكن عيني برغم ذلك .

ـ أنا ما زلت مستعداً لأن أفعل أي شيء في العالم لإسعادك . . أخبريني ماذا تريدين مني أن أفعل وسأحققه لك دون نقاش ، حتى لو طلبت مني أن أذهب لـ «علاء» فأعتذر له وأقبل رأسه لتعود حياتكما كما كانت . . فسعادتي الحقيقية أن أراك سعيدة . .

تطلعت «نيللي» إليه . . طوقته بنظراتها . . حاصرته أنفاسها وهي تهتف به في صوت مرتعش:

ـ أتحبني كل هذا الحب حقاً؟

شحب وجه «مرسي» . . بدا السؤال مفاجئا . . غمغم

مدارياً ألمه: لا تهتمي بمشاعري . . تلك أشياء لن تغير من الأمر شيئاً .

همست تقول له: بل إن كل ما جرى . . كان بسبب هذه المشاعر . . النبيلة .

انعقد لسان «مرسي» ولم يدر بماذا يجيب . . وغمغم بوجه شاحب: لست أدري ماذا تقصدين يا ابنة العم العزيزة؟

ولكنها واصلت التطلع الى وجهه والتحديق في عينيه القلقتين كأنها تتمنى قراءة ما يدور فيهما من مشاعر معذبة . . وهمست تسأله في رجاء:

ـ أخبرني يا «مرسي» . . لماذا قمت بإنقاص وزنك وأعدت التقدم لامتحان الثانوية العامة؟

فوجئ مرسي بالسؤال . . وارتعدت شفتاه دون أن يجرؤ على النطق . . وهرب ببصره تجاه النافذة المفتوحة وشعاع الشمس الذهبي المليء بالأمل يفيض على المكان بنوره . .

وعض شفتيه في قسوة هامساً: لعلني كنت أحاول أن أبدأ حياة جديدة . . أن يكون في حياتي أمل وهدف غير المال .

ولكن «نيللي» واجهته في صراحة: أنت فعلت ذلك لأجلي وحدي . . أليس كذلك؟

شحب وجهه أكثر. . وتسارعت أنفاسه وهو يحس أن كل مشاعره صارت عارية. . وهمست «نيللي» تقول: إنه نفس السبب الذي جعلك تخوض تحت المطر والبرد لتأتيني بهدية عيد ميلادي. . غير مبال حتى بالمرض لو أصابك.

نكس «مرسي» بصره في ألم وهمس: كفى. . أرجوك لا تعذبيني بأكثر مما تعذبت. . إنني أعترف لك فلم يعد هناك مهرب من الحقيقة. . إنني لم أفعل ما فعلت إلا لسبب وحيد. . لأنني أحببتك ولا أزال أحبك أكثر من أي شيء آخر في العالم. . فهذا الحب الذي استقر في كياني منذ كنا طفلين صغيرين نما وصار عملاقا واحتل كل قلبي فلم يعد بإمكاني التخلص منه أبداً.

عضت «نيللي» على شفتيها في قسوة وواصلت في همس جريح:

ـ برغم هذا الحب. . ساعدتني لأكون زوجة لرجل آخر. . غيرك.

امتلأت عينا «مرسي» بدموع ملتهبة، فأدار وجهه بعيدا لكي لا ترى «نيللي» دموعه، وهمس في ألم:

ـ لو أنك جـربت هذا الحب الذي يسكن قلبي تجـاهك . . لأدركت أنني كنت كـأنما اقتطع ذاتي نفسهـا وأهبها لإنسان آخر . . من أجل إسعادك .

ارتعد جسدها وقالت مذهولة: أنت لا تدري ماذا فعل حبك بي . . لقد كشف لي الزيف من الحقيقة . . فلولا هذا الحب مـا أمكنني أن أرى «علاء» على حقـيقتـه . . ولربما اندفعت في عناد وتهور لأتزوجه ثم أكتشف حقيقته في وقت لن يفيد فيه الندم .

انتفض«مرسي»وهتف في غضب: ما كنت لأسمح له أن يمسك بأذى أو يسبب لك حزنا مهما حدث .

ـ أتدري أنني أشكر الله كـثيـراً لأنه أرسل «علاء» الى طريقي . . وأحببته ذات يوم . . لأجل أن أكتشف مشاعر الحب الصادقة . . في قلبك أنت . . ولكي ينمو في قلبي نفس القدر من الحب تجاهك .

تطلع إليها في ذهول وفاجأته عبارتها تماما وبدا غير مدرك لما تقصده للوهلة الأولى . . وواصلت «نيللي» في شجن: إن الله جل جلاله يدبر المقادير في حكمه ، وحتى المآسي المؤلمة والتجارب العسيرة علينا لا تخلو من الفائدة والحكمة لأنها تنير

أبصارنا الى الحقيقة. . ولولا حبي لـ «علاء» وخطوبتي له ما اكتشفت قدر حبك لي وسمو أخلاقك. . لدرجة أنك كنت مستعدا لأن تبذل نفسك لأجلي. . أتدري لماذا أغلقت على نفسي أبواب حجرتي اليومين الماضيين وتمنيت لنفسي الموت. . أتدري لماذا؟

سألها لاهثا: لماذا؟

أجابته وحزن مرير يعتصر مشاعرها: لأنني لن أسامح نفسي على ما فعلته بك وإهداري لمشاعرك الكريمة النبيلة. . وأنا أذبحك كل لحظة بطلب مساعدة الإنسان الذي نافسك على قلبي. . فأقبلت بقلب كريم تفعل ذلك دون ضغينة. . فأي إنسان رائع تكون بالرغم من خشونتك وقلة تعليمك التي جعلتني يوما أستهين بك وأسخر من مشاعرك؟

ارتعد «مرسي» ولم ينطق. . وواصلت «نيللي» في همس: لقد تبدلت مشاعري تماما. . وتحولت تجاه إنسان آخر. . أنت.

شلته المفاجأة تماماً. . وتهدجت أنفاسه واستحال عليه النطق. . وارتعدت أصابعه كأنما أصابتها حمى. . كانت المفاجأة أقوى من أن يستوعبها عقله. . أو تجد ردا لديه.

ومسحت «نيللي» دمعة من مقلتيها هامسة: أنا لا أخجل من أن أعترف لك بأنني أحببتك أكثر من أي شيء آخر في هذا العالم. . فقد نما حبك في قلبي على مهل مشبعا بآلام كثيرة. . فلا تظن أن تلك الشهور الفائتة مضت بي هنية سعيدة مع «علاء». . بل إنني كنت أرى ما تفعله معه وما تبذله لاجلي وأقارنها بأنانية هذا الانسان. . فأتألم في صمت ولا أقدر حتى على كشف مشاعري لأي مخلوق. . الى أن حانت اللحظة التي لم يكن هناك مفر من مواجهتها. . لحظة الحقيقة. . لتبدل مشاعري.

ارتعد «مرسي». . وغمغم في صوت لاهث مرتعد: أنت. . أحببتني؟

أجابته «نيللي» وابتسامة رقيقة تتخلل ملامحها لأول مرة منذ وقت طويل:

ـ وسأعترف للعالم كله بحبي لك ولن أخجل منه أبداً. . وسأفاخر بك أمام الناس جميعا.

ـ آه. . إنني لا أكاد أصدق ما أسمعه. . أحس كأنني في حلم.

ـ الواقع احيانا يكون أجمل من الأحلام.

تشبث بأصابعها كأنه يخشى أن تهرب منه . . أن يفقدها . . وهمس: أنت لا تتخيلين سعادتي الآن . . أشعر كأنني امتلكت العالم كله . . كأنني ولدت حقاً من جديد.

وواصل في لهفة: إنني أعدك بأنني سأمنحك كل السعادة في هذا العالم . . سأكون حبيباً وقريباً وصديقاً وكل ما تتمنين . . سأشعل روحي قرباناً يحترق نظير محبتك.

مست «نيللي» أصابعه المحمومة برفق وهمست تقول له: وأنا أيضاً أعدك أن أمنحك كل السعادة التي تمنيتها يوماً معي . . والتي لن يسلبها منا إنسان غريب أبداً.

صاح «مرسي» في بهجة: ماذا تنتظرين . . هيا بنا نخرج الى أبيك وأمك لنعلن لهما عن فرحتنا وسعادتنا ونتزوج بأسرع ما يكون . . فقد صرت منذ هذه اللحظة أخشى أن أفقد لحظة سعادة وأنت معي . . فلطالما ذقت أياماً مليئة بالتعاسة وأنت بعيدة عني.

وتشابكت أصابعهما . . وتورد وجه «نيللي» وقد زايله شحوبه، وبدا كأن العينين استعادتا بريق الحياة . . من جديد.

الفهرس

	صفحة
إعجاب	٥
إهانة . . ومصالحة	١٧
مفاجأة قاسية	٣١
خطوبة حزينة	٤٠
باسم الحب	٤٨
كرم زائد	٥٦
نبوءة الغجرية	٦٥
هدية عيد الميلاد	٧٢
الطاووس	٧٩
الحياة تبدأ من جديد	٨٩

الطاووس

منذ اللحظة الأولى التي وقع فيها بصر «نيللي» على «علاء» أُعجبت وفتنت به. وكان هو وسيماً مندفع الحيوية تتمناه الكثيرات زوجاً لهن..

ولكنه اختارها وحدها.. وكان اختيار الطاووس.. ثم تنكشف الحقائق وتتهدم الأماني.. فهل يصمد زورق الأحلام أمام قسوة الحياة؟

دار الجيل
للطبع والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان